AL-NA'URI

'A'ID ILA AL-MAYDAN

2272
.7027
.311

2272.7027.311
al-Nā'ūrī
'Ā'id ilā al-maydān

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 081685560

عيسى الناعوري

عائد إلى حيفا

دار الرائد
حلب

عائد الى الميدان

مجموعة اقاصيص

al-Nā'ūrī, 'Isā

عيسى الناعوري

'Ā'id ilā al-maydān

عائدٌ الى الميدان

المجموعة القصصية الثالثة

سنة ١٩٦١

جميع الحقوق محفوظة

(RECAP)
2272
.7027
.311

كتب للمؤلف

١ ـ ايليا ابو ماضي رسول الشعر العربي الحديث
الطبعة الاولى : دار الطباعة والنشر ـ عمان ١٩٥١
الطبعة الثانية: منشورات عويدات ـ بيروت ١٩٥٨
٢ ـ طريق الشوك (المجموعة القصصية الاولى) ـ نفدت
الناشر : مكتبة الاستقلال ـ عمان ١٩٥٥
٣ ـ مارس يحرق معدّاته (رواية)ـ سلسلة « اقرأ » رقم١٤٧
الناشر : دار المعارف ـ القاهرة ١٩٥٥
٤ ـ أناشيدي (المجموعة الشعرية الاولى)
الناشر : دار الرائد العربي ـ حماة ١٩٥٥
٥ ـ خلي السيف يقول (المجموعة القصصية الثانية)
الناشر : مكتبة الاندلس ـ القدس ١٩٥٦
٦ ـ الياس فرحات شاعر العروبة في المهجر
الناشر :
دار النشر والتوزيع والتعهدات ـ عمان ١٩٥٦
٧ ـ بيت وراء الحدود (رواية)
الناشر : منشورات عويدات ـ بيروت ١٩٥٩

12-27-66 BAS

٨ ـ ادب المهجر (دراسة ادبية شاملة ، في ٦٢٨ صفحة ، قطع كبير)
الناشر : دار المعارف ـ القاهرة ١٩٥٩
٩ ـ أطفال وعجائز (مجموعة أقاصيص مترجمة عن الايطالية)
الناشر : دار المعارف ـ بيروت ١٩٦١
١٠ ـ عائد الى الميدان (المجموعة القصصية الثالثة)
الناشر : دار الرائد ـ حلب ١٩٦١
(عدا بعض الكتب المدرسية ، وكتب الاطفال)

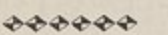

مؤلفات اخرى تصدر قريباً

١ ـ أدباء ومستشرقون عرفتُهم في ايطاليا (رحلة وتعريف)
٢ ـ ليلة في القطار (رواية ، من وحي رحلة ايطاليا)
٣ ـ من الشعر الايطالي الحديث
(مختارات شعرية لعدد من شعراء ايطاليا المعاصرين)
٥ ـ أخي الانسان (المجموعة الشعرية الثانية)
٥ ـ النهضة الادبية في ضفتي الاردن (دراسات ونماذج)

عيسى الناعوري

عائدٌ الى الميدان

الطبعة الاولى

كانون الاول سنة ١٩٦١

حلب

الجمهورية العربية السورية

دار الرائد

المقدّمة

بقلم

الاديب المعروف الاستاذ خليل هنداوي

صاحب هذه المجموعة القصصية الاستاذ عيسى الناعوري أديب مرموق طالما خاض ميادين عدة متنوعة في عالم الادب. قد عرفناه شاعراً رقيقاً انفعل مع الاحداث، وكاتباً للمقالة التي كانت مرآة فكره ووجدانه، ومترجماً واسع الاطلاع، دقيق الموازين في دراساته الادبية؛ واليوم نراه في هذه المجموعة القصصية قصّاصاً بارعاً.

تضم هذه المجموعة عدة قصص قصيرة تذهب مذاهب مختلفة في اتجاهاتها، ويبدو أن صاحبها كتبها في فترات متقطعة يغلب فيها عنصر المناسبات. وفيها قصص تكاد تتحد فيها الغاية، بل تتشابك فيها الحوادث، كتلك القصص التي

استوحاها من مناسبة قومية كقصة « عائد الى الميدان » وقصة « من بور سعيد » . فالاولى قصة شاب جندي ، ليس لأمه العجوز سواه ، قد أبلى بلاءً حسناً في معركة فلسطين ، وأصيب بجراح قاتلة . . . نراه في المستشفى ، في غيبوبة ، وعلى سريره تلك الأم الذاهلة التي تنتظر مصير ولدها ، هذا المصير الذي تريد أن تستطلعه من فم الطبيب . ويشاء القدر ان ينجو ويسلم . . . ولكنه يسلم ليعود ثانية الى الميدان . . . فيذهب ، بينما الأم ترضى بما نالت من حصة ولدها ، فليأخذ الوطن الآن حصته منه . . . والقصة الثانية تدور حول فتى وفتاة متحابين تباريا في التضحية . . . والفتى نفسه مصاب باصابة قاتلة ، يرسل انفاسه بينما المدينة تنصب عليها الضربات المدمرة ؛ والفتاة ـ فجأة ـ تنزل كممرضة على المستشفى ، فتلقى حبيبها ، فتلزم سريره ، وترى كيف تختفي ومضات الحياة من عينيه . . . وبدلاً من ان يحملها هذا المشهد على اليأس ، يستيقظ في نفسها الشعور بالتضحية من أجل حبيبها . أليس الكل الآن في هذا المعترك أحباء لها كحبيبها . . . فلتكمل رسالة حبها للجميع .

بطل القصة الاولى مجهول المصير . . . ليس له مايشده بالحياة الا تلك الأم العجوز . . . والبطلة الثانية حملت جرحها بصمت . . .وتحاول ان تواسيه بالتضحية . ولا شك انها واسته وعزت روحه ـ اذا بقيت حية ـ بانتصار مدينتها على قوى الشر والظلام .

الابطال هنا يصابون ، ويموتون . . .ولكنهم يفارقون الحياة برضا ، لأنهم أرادوا الموت بارادتهم ، ليكملوا واجبا مقدساً عليهم . . .

وهكذا ندرك ان الكاتب يبغي لقصته البناء الهادف... ويبدو ان الكاتب له مذهب معلوم لا يحيد عنه في « الاستهداف » . ولا شك ان الاستهداف في القصة يستخدم الواقع لا ليبقى واقعاً ، بل يحوّله الى طاقة تمثل فيها فكرة مثالية . وكثيراً ما يجني الاستهداف على مجرى القصة ، ويضغط على الابطال ليخرجهم من واقعيتهم ، ويقيدهم بمثاليتهم . . . ولذلك كان هنا كاتب القصة الهادفة يتعرض لزلات فنية اذا لم يؤاخ بين الواقع وبين ما يرمي اليه . ويظهر

ان الاستهداف في هذه القصص كان يطلبه الكاتب بل يلحّ عليه ، بل لا يكتب منها الا ما يجد فيه « الاستهداف » .

واذا كان الاستهداف في هاتين القصتين قومياً ، فانه قد يكون اجتماعياً يرمي الى اصلاح المجتمع كما نرى في قصة « مذكرات والد » حيث يمتزج التحليل النفسي بالمغزى الاجتماعي . . . فالوالد هنا رجل مثقف كبير ، قد تجاوز عصره . . . ولم يرد ان يعترف بأن الزمان يتبدل ، وان الاولاد خلقوا لزمان غير زمانه . حتى اذا عرف ان ولده في حياته الجامعية بلندن يتصل بزميلات له ، ويخرج معهن الى النزهة ، . . . ويلهو معهن لهوا بريئا ، رأيناه تثور ثائرته ، وينصب غضبه على ولده الذي يخون ـ بحسب اعتقاده ـ امانة الدراسة . لكنه وهو العاقل المثقف يأخذ قليلاً قليلاً بالرجوع الى نفسه ، فيحلل عوامل غضبه ،فاذا هي تندفع من شبه الغيرة . . .الغيرة من هذه الحياة الجديدة التي لم يمارسها هو في بيئته المكبوتة . . . واذا هو يعود الى انصاف ولده ويترك له الحياة كما تطورت الحياة .

وهنا في هذه القصة التي تعالج مشكلة ضخمة من مشاكل حياتنا نستطيع ان نجاري الكاتب من ناحيـة ، ونستطيع ان نعارضه من ناحية. فنحن مع الكاتب في وجوب تحرير الابناء من قيود الآباء التي تختلف اسبابهـا ، وبخاصة اولئك الآباء الذين يريدون ان يرسموا صورة ابنائهم على صورتهم ، مع ان الزمان يتطور والعادات تتغير . وهـذا مجتمعنا ـ مثلا ـ نراه كل يوم يتزحزح عن تقاليده ، ويستقبل الحياة الطليقة ، لأن العادات المتجمـــدة لا تشكل فضيلة . ولكننا ـ من ناحية ثانية ـ هل يمكننا ان نجري في تعليل محافظة هذا الوالد كما جرى الكاتب ؟ وهل نستطيع ان نقول مع كل والد ما قاله أبو فارس بعد ما وصل الى الحقيقة : « لقد كشف لي ابني فارس اليوم عن نفسي ، واراني اياها على حقيقتها بمذكراته ؛ فما كانت ثورتي عليه غيرة على الاخلاق والآداب ، ولا حرصا على المال الذي ارسله اليه ، ولا كانت قسوتي شيئاً مما ورثته عن والدي » .

واذاً ، فيمَ كانت هذه الثورة ؟

انه يعللها بقوله : « أكاد أسمع كل جارحة فيّ تتهمني ، بملء القسوة ، بأن كبتي وحرماني ايام الشبـــاب ، وادبار الحياة عني اليوم ، واقبالها بكل مفاتنها ومباهجها على أولادي ، هي السبب في عنفي وقسوتي على هؤلاء الابناء الشبان . »

كأني بالكاتب يريد ان يفسر العلة من الناحيـــة الغريزية ، ويسلك الى تفسيره هذه الطريقة التحليلية . . . ولكنه غاب عنه ان هذا التحليل اذا صدق مع بطله هذا فانه يصدق لسبب واحد ، هو ان هذا البطل « والد » شاذ ، لم تتفتح فيه طاقة الابوة التي هي ابعد مدى ، واسمى غيرة . . . وكلنا والد في هذا المجتمع . . . وقلما استولت على نفس والد فينا مثل هذه الوساوس .

ويعجبني في هذه القصص الهادفة شخصية «منصور بك» الذي يعيش بلحمه ودمـه في مجتمعنا . . . انه فتى طموح ، اعتقد بأن ارتقاء درجات الحياة يتبع نظامـا عادلاً . ولذلك يجدّ ليحرز لقب « بك » كما يقدره ابناء مجتمعه ، وقد تعرف الى فتاة احلامه التي تنتظر منه تحقيق طموحه قريباً . ولكن

الايام تمرّ ، وهو جامد في مكانه ، بينما غيره، من هم أقل حظاً من علمه وجده وعمله ، يرتقون سريعا من درجة الى درجة . . وما علة ذلك الا لانهم يتملقون رؤساءهم ويبذلون اباءهم . فاصبح « منصور » شخصية يشفق عليها اهل الحي ، لانه غير كفء ولا اهل للترفيع ، واصبحت محبوبته تخجل من منزلته . وفي ذات يوم ترك منصور الوظيفة والوطن ، واتجه الى المهجر؛ وهناك تفتحت مواهبه للعمل،او بالاحرى، وجد الرؤساء الذين يقدّرون الفتى لعمله ، فاذا هو يرتفع ، واذا هو يكمل دراسته في الهندسة ، ويربح الاموال الطائلة التي يستغلها اهله في البلد ، وهكذا صار « منصور » شخصية جديدة جديرة بالتقدير؛ والناس لايعرفون مهازل القدر حين جعل منهم مهازل . . . وفي المهجر يتزوج رفيقة له تقاسمه العمل ، لكن القدر لم يتم سعادته بها،اذ ماتت بمرض عضال، وعاد الى وطنه وحده ليعمل فيه . فما اذهله الا ان القوم يصافحونه وينادونه بلقب « بك » ، هذا اللقب الذي أحبه في مطلع حياته ، والآن لا اشد كرها عليه منه ! ان محبوبته لا تزال الفتاة التي تنتظر . . . وقد حقق القدر لها ثمرة

انتظارها .

هذه القصة ، على كثرة الحركة والمفاجأة فيها ، يستبد بها الاستهداف ايضاً ،من حيث انها تعالج مرض مجتمعنا الذي لا يزال ينخدع بالقيم التي لا تعتمد على الكفاءة والعدالة الاجتماعية ، وانما تعتمد على الوساطات والوجاهات التي طالما وأدت المواهب ، وألّهت المثالب .

ومثل هذا الاستهداف نراه ايضاً في قصة «قلوب طيبة» وما أصحاب هذه القلوب الا الاطفال الذين لم يفسد المجتمع براءة قلوبهم ، ولم تجعل في عالم الطفولة حدوداً بين اطفال واطفال .

اما القصة التي تكاد تنفرد بلون فني خاص ، وتحليل نفسي عميق ، وضبط انساني دقيق فهي قصة « استغراق » قصة ذلك الفتى الذي ملّ حياة الدير ، واراد الفرار منه ، الا ان قريبته التي تدرس معه هددته بالفرار معه ؛ فبقي عاما آخر ، ثم آثر الفرار دون ان يراها ، وهو معتقد بأن نظره الى الحياة سيتبدل ، لان الحياة ستعيد صحة البصر الى عينيه ،

وصحة الادراك الى عقله . . . وهكذا كل شيء جديد فيها ، وكل شيء جميل ؛ ولكن البطل ينهي قصته بهذه الكلمة : « شيء واحد كان من قبل جميلا في عيني وحبيباً الى نفسي ؛ وها هو الآن معلق امامي على جدار الكنيسة فوق الهيكل ، وما يزال جميلا في عيني وحبيبا الى نفسي كما كان من قبل : صورة المسيح الطفل والحروف الابيض الصغير الراقد أمامه بملء البراعة والوداعة ! »

وهكذا تنتهي القصة بأن تدور في حلقة واحدة، لان الجمال هو الجمال ، والوداعة عنصر من اجمل عناصر الجمال .

من هذا الجمال البسيط الوديع نستطيع القول ان الاستاذ الناعوري راح يستمد البساطة البعيدة عن التعقد ، ليجعل ابطال قصته يتحركون فيها ، فلا هو الى الغموض ، ولا هو الى الفن المعقد الذي يجعل ابطاله يمثلون اكثر مما يعيشون . والحوادث انما تدور وسط اطار محدود ، لا زخرفة فيه ، تمشي الى غايتها بدون عوج ولا التواء ؛ وربما لم يعجب هذا المذهب بعض كتاب القصة ، ممن يرون ان

القصة كينبوع الماء ، لا بد ان يعرج على سراديب ملتوية في أعماق الارض قبل ان يجد منفذا له .

على ان تركيز الكاتب على الاستهداف جعله يستبد بكل دوافع القصة ، ويستغل كل مقوماتها للوصول الى الهدف الذي يضعه في ذهنه قبل ان يضع القصة ، ولذلك لاحظت ان جو القصة يتحول في كثير من الاحيان الى الجو المقالي ، وبخاصة عندما يريد الكاتب ان يفرض آراءه وأهدافه ، مع ان هذا الاسلوب يمكن الاقلاع عنه ، بحيث يترك للقارىء ان يفكر بنفسه دون ان يفرض عليه اي تفكير .

وعلى كل حال ، اهلا بهذه المجموعة الرائعة التي تمشي على استحياء الى غايتها المثلى ، واهلا بكاتبها الذي يصافح كبار القصاصين ابداعا واتباعا ، وتفكيراً وتعبيراً .

خليل الهنداوي

ـ مع السلامة يا ولدي ! عُد
الى الميدان ، ودعني أذكرك
في كل مجلس باعتزاز وفخر .
إن حصّتي فيك ليست اكثر
من حصة وطنك وأمتك ؛
وقد أخذتُ منك حصتي ،
فأعطِ وطنك وأمتك حصتها!

ما لتلك السيدة العجوز جالسة إلى جانب السرير في المستشفى ، ومنديلها بيدها مبتلّ بأكمله بالدموع المنهمرة بغزارة من عينيها الملتهبتين كالجمر ؟

ليس ذلك اليوم يومها الأول هناك ؛ لقد جاءت أمس أيضاً في مثل هذا الموعد ، وجاءت كذلك أمس الأول حين بلغها نبأ إصابة سلمان في المعركة الكبيرة التي كانت دائرة في باب الواد ؛ وفي كل مرة كانت تنتحب بمرارة محرقة ، وتنتظر الى جانب السرير ساعات كلها قلق ، لعلّ سلمان يصحو من غيبوبته فيكلمها ، يقول لها شيئاً يطمئنها إلى أن هناك أملاً في عودته الى الحياة ؛ وسلمان لا يصحو ، ولا يطمئنها ؛ ولكنه يهذي دون انقطاع منذ أن دخلت عليه في هذا اليوم الثالث ، وجسمه يهتزّ في السرير عنيفاً غاضباً أحيانا ، واحياناً متثاقلاً متراخيا .

كان إذ ذاك يهذي بالمعركة ، فيصيح كأنه يهاجم اليهود ، ويحرّك يديه كأنه يطلق النار متلاحقة من مدفع

(فيكرز) ، ثم يتوقف قليلاً ، ويعود بعد ذلك الى الصياح من جديد بكلام غير مفهوم ؛ وأمه تراقبه بجزع ولهفة وحنان ، وما تدري : أتفرح لهذيانه مستبشرةً بعودته الى الحياة ، أم تخشى أن يكون ذلك نذيراً بقرب اجتيازه البرزخ الضيّق الى الأبدية .

ليت الطبيب يدخل فيزيل جزعها ! أو على الأقل ليت الممرضة تجيء لتزيل وساوسها وهواجسها ! ولكن لا الطبيب يدخل ، ولا الممرضة تجيء ؛ وهذيان الجندي الجريح يعلو ويخفت ؛ يتوقف قليلا ثم يعود من جديد ؛ ودموع السيدة العجوز تنهمر بلا انقطاع ، وعيناها المحمرّتان كالجمر تحدّقان في الوجه الذي تعلوه اللفائف البيض ، وتحيط به كأنها الخوذة المحكمة الشد حول رأسه وعنقه .

ولم تطق السيدة صبراً ، فنهضت عن مقعدها وانسلّت من باب الغرفة تبحث عن الطبيب أو الممرضة . وعند باب الغرفة التقت بالطبيب نفسه ، فجثت عند قدميه باكية ضارعة :

ـ إنه يهذي يا دكتور ... إنه يهذي دون انقطاع !

فربت الطبيب على كتفها وأنهضها عن الأرض .

فتراكضت الكلمات متدحرجة من بين شفتيها :

ـ طمّني يا دكتور ، هل سيعيش سلمان ؟ هل سيعود الى الحياة ؟ !

فلم يجب الطبيب ، بل دخل معها الى الغرفة ، ثم تقدم من سرير سلمان ، وكان هذا ما يزال يهذي ؛ وسمعه الطبيب يصرخ :

ـ آخ !! قتلوني . . . قتلوني الكلاب !

ثم انقطع عن الهذيان ، وهدأت حركة جسمه على السرير . فطار قلب الأم هلعا ، وراحت عيناها تتنقلان جزعتين ضارعتين بين السرير وعيني الطبيب الذي أخذ يجس نبض سلمان صامتا .

ونظر الطبيب الى العجوز باسما ، فأشرق قلبها كأنما حملت اليها ابتسامته ألطف ما في أشعة الشمس من نور ودفء :

ـ دكتور ! هل يعيش ؟!

وعادت يد الطبيب تربت على كتف العجوز بحنان ولطف :

ـ اطمئني ، سلمان بخير ! ستكلمينه غداً ، ولكنه يحتاج

الى ثلاثة أسابيع قبل أن يرافقك الى البيت .

وقبل أن يصل الطبيب الشاب الى نهاية عبارته كانت العجوز تبلّل يده بدموع الشكر ، وتغمرها بالقبل الحارة الملهوفة . فأسرع الطبيب يسحب يده من بين يديها ويقول ملاطفاً :

ـ هل لك أبناء غيره ؟

وجاء صوتها مرتعشاً متقطعاً بالنحيب :

ـ إنه امل حياتي الوحيـــد يا دكتور ! لا أولاد ولا بنات . . . عشت حياتي كلها عليه وحده ، فهو الحبل الذي يشد حياتي وشيخوختي الى البقاء؛ فان حدث له ما يسوء ـ لا سمح الله ـ تحطمت شيخوختي ، وانقطـــع كل ما يشدني الى الحياة .

واتسعت الابتسامة المشرقة في وجه الطبيب ، ووضع يده على كتفها وقال :

ـ اطمئني يا سيدتي ، إنه سيعيش لك ، وستقر بشبابه أيامك الباقية .

ـ الله يحفظ شبابك يا دكتور ! لقد أعدت اليّ الأمل ،

والى شيخوختي التعزية وحب الحياة !

وما كاد الطبيب يغادر الغرفة حتى دخلت احدى الممرضات تعلن انتهاء وقت الزيارة . فانحنت العجوز على وجه سلمان تقبّله ، ثم خرجت خلف الممرضة ، وعيناها الغارقتان في الدموع تنظران خلفها الى السرير الذي تركته يحمل أمنيتها الوحيدة الباقية في الحياة . وعند خارج الباب أمسكت بيد الممرضة وقالت لها ضارعة بلهفة وحرارة :

ـ ابني سلمان . . . أستحلفك بشبابك أن تُعنى بابني يا حبيبتي ! إنه شاب مثلك يا بنتي ، وهو وديعتي عندك !... أغلى وديعة لي في الحياة :

فلم تتوقف الممرضة معها ، ولكنها أجابتها بسرعة وبغير جفاء :

ـ اطمئني ! غداً ستجدينه أحسن حالا !

ثم تابعت الممرضة سيرها الى الغرف الاخرى لتصرف الزائرين منها .

★ ★ ★

قبل موعد الزيارة من بعد ظهر اليوم التالي كانت أم سلمان قد تعبت من الجلوس والوقوف في ساحة المستشفى ، فما إن فُتح الباب لدخول الزائرين حتى أسرعت تقطع الردهة الطويلة مهرولة ، ثم تصعد السلم لاهثة ، وقلبها يخفق بشدة بين الأمل والخوف .

أتراه قد أفاق من غيبوبته الطويلة ؟! أتجده الآن صاحياً كما وعدها الطبيب والممرضة ؟! أتراها ستجد الابتسامة الهادئة الحلوة ترفّ على ثغره من جديد؟! أيستطيع أن يفتح ذراعيه ليستقبلها بينهما ؟! هل سيخاطبها ؟!

والتقت على رأس السلم باحدى الممرضات ، فسألتها ملهوفة قلقة :

ـ هل أفاق يا بنتي ؟ هل قال شيئاً لأحد ؟!

فزمّت الممرضة جفونها وهزت رأسها وسألت :

ـ من هو ؟

ودون أن تتوقّف العجوز أجابت وهي تسرع الخطى نحو غرفته ، غير ملوية على الممرضة :

ـ سلمان ! ابني ! حبيبي ... ألا تعرفينه ؟ ! سلمان ، ابني ! ...

ودفعت باب الغرفة دون ان تتوقف لتقرعه اولا ، واسرعت الى الداخل لتجد سلمان فاتحاً عينيه ، بادي اليقظة كأنما ينتظر دخولها . فانهمرت دموع الفرح من عينيها ، وانهالت عليه تقبّله وتقول :

ـ ولدي ! حبيبي ! الحمد لله على سلامتك يا ولدي !

فابتسم لها سلمان ابتسامة أحسّت معها بأن الدنيا كلها تضحك لها وتغني وترقص ... وقال سلمان :

ـ لقد اقلقتك إصابتي يا امي ؛ اليس كذلك ؟

ـ انك بخير يا ولدي ! الحمد لله ! الحمد لله !

ـ إن دعواتك الصالحة لا ترجع عن السماء خائبة !

ـ السماء تحفظك لي يا ابني ! لقد حمتك من الموت لأجلي !

فتوقف سلمان قليلاً قبل ان يجيب ، ونظر نظرة عميقة الى عيني أمه المغرورقتين بدموع الفرح ، ثم امسك بيدها فوق صدره وقال :

ـ لكنّ الموت ليس شيئاً مفزعاً في مثل موقفي يا أمي !

إنه شهادة في سبيل شريف : سبيل الله والوطن ! إن الذي يدافع عن وطنه يعرف انه خارج لمقابلة الموت في كل لحظة ، ولذلك لا يخاف منه . الشبّان امثالي هم الذين يُرجَون لمثل هذا قبل سواهم !

فانحنت العجوز على سلمان تطوّقه وتقول :

ـ سلامتك يا حبيبي ! لا تقل هذا، لا أريد ان تموت ! يجب أن تعيش لي يا ولدي ، وان افرح بك قبل ان انصرف عن هذه الارض !

فابتسم سلمان مشفقاً ، ولم يشأ ان يزيد من قلق أمه وخوفها عليه . فرفع رأسها عن صدره بلطف ، وقال وهو ينظر باسماً الى عينيها الممتلئتين بالدموع :

ـ أنت كل رجائي وسلوتي في الحياة يا أمي ؛ فلا تخافي عليّ ؛ لقد احسنتِ تربيتي، وأنشأتِني نشأة حسنة، ولن يخيّب الله رجاءك فيّ إن شاء الله !

★ ★ ★

بعد ثلاثة اسابيع غادر سلمان المستشفى مع أمه وقد شُفي تماما من جراحه، وأصبح يستطيع ان يقضي مع أمه اياماً

في البيت للاستجمام قبل ان يعود الى كتيبته . وكان الفرح في قلب والدته العجوز بعودته الى الحياة يختلط بخوفها من قرب عودته الى الميدان ، والى القتال . كانت تقول إنه قد ادّى واجبه ، فحسبه ما لقي ... ألا يكفي انه وصل الى حدود الأبدية، ولم يعد منها إلا بعد أيام ملأى بالخوف والقلق والدموع والعذاب !!

ولكنّ سلمان لا يقبل منها ان تبذل أي مسعى لاطلاق سراحه من الجيش . إن الهدنة تكاد تنتهي مدّتها، ومعاودة القتال بعدها أمر لا مفرّ منه ؛ والميدان في حاجة الى كل جندي ، والى كل من يحسن استعمال السلاح، لصدّ قوى الاعداء الذين انتهزوا شهر الهدنة لاعادة تنظيم قواتهم ، ولتوفير السلاح الثقيل والخفيف لجنودهم طمعاً في احتلال ما بقي من فلسطين بسرعة خاطفة .

وقبل انتهاء الهدنة بخمسة ايام وقف سلمان امام باب البيت بألبسته العسكرية ، يودّع أمه ليعود الى الميدان . ولم تستطع امه ان تتغلب على مشاعرها ، فأطلقت العنان لدموعها وهي تطوّق عنقه بذراعيها ، وتلقي برأسها المكلّل بالشيب على

صدره . وبقوة لم تستطع كبحها هتفت وهي تشرق بدموعها :

ـ سلمان ، ولدي ! لا تعد الى القتال وتتركني هنا وحدي ! إبق معي يا ولدي !

وأحسّ سلمان بحاجته الى البكاء، ولكنه زجر دموعه، وقال لأمه برقّة وحنان :

ـ إن معركتنا لم تنته بعد يا امي. اتريدين ان يفرّ منها ابنك فرار الجبناء ؟! لو فررت منها لحمّلتُ شيخوختك العار ، أما اذا صمدتُ فيها الى النهاية ، وقضيتُ فيها شهيداً، فسيكون شرف الشهادة لي ولك معاً ؛ سيدعوك الناس « ام الشهيد » ، وسأكون فخراً لك ، وللأجيال بعدك وبعدي . إن عواطفنا يا امي لا تحمينا من الموت . أنت وانا سنموت يوماً ما بسبب من الاسباب ؛ وخير لمثلي ان يموت في ساحة الشرف موت الابطال ، من ان يموت كالذبابة الحقيرة .

وتعالى نحيب العجوز ، ورأسها يعلو ويهبط على صدره ؛ ولكنها لم تقل شيئاً . كانت كلمات سلمان تعمل في نفسها ، بينما راح هو يتابع كلامه :

ـ أنا تعلمت الشجاعة وحب الوطن منك . لقد مات أبي

وأنا طفل ، وأنت عنيت بي ، وكنت تروين لي قصص الابطال والشجعان ومغامراتهم وحروبهم ؛ فهل تصدّينني الآن وانا احاول ان احقق ببطولتي أحلامك واحلامي ، واستهين بالموت والخوف والأخطار لأحقق الحرية لوطني والنصر لأمتي ؟! إنك لن ترضي لي بالهزيمة ، ولن تستطيعي أن تفخري بي في شيخوختك اذا انا فررت من الميدان كالجبناء !

فرفعت العجوز رأسها عن صدر سلمان ، ومسحت الدموع من عينيها ، ثم راحت تنظر الى وجهه بصمت . ولم تلبث ان قالت متجلدة :

ـ مع السلامة يا ولدي ! عُد الى الميدان ، ودعني أذكرك في كل مجلس باعتزاز وفخر ! إن حصتي فيك ليست اكثر من حصة وطنك وامتك ؛ وقد اخذت منك حصتي ، فأعطِ وطنك وامتك حصتها!

فانحنى عليها سلمان يعانقها عناقاً طويلا ، وهو يقول :

ـ انك مفخرة لي يا أمي ! الوداع !

وانفلت من بين يديها ، ومضى في طريقه عائداً الى

مكانه في الميدان . وكلما التفت الى الخلف رأى يد أمه مرتفعة في الفضاء تلوّح له، وشفتيها تتحركان بكلام ؛ لعلّها كانت تقول له : « مع السلامة يا ولدي ! لقد اخذتُ حصتي منك ، وانت الآن حصة وطنك وقومك ! »

« كثيراً ما تكون دعـــوة
الفضيلة والأخلاق الحميدة ،
ستاراً يخفي وراءه المرشدون
والأخـلاقيون رغبـــاتهم
المكبوتة الفاشلة ! . . »

اليوم أغضبتُ ابني « فارس » . لقد قسوت كثيراً في تعنيفه حتى اخرجته عن اطواره ، فقسا في الرد عليَّ ، خلافاً لما الفته منه ، وقال لي في حدّة غضبه : « أنت والدي حقاً ، وانا لذلك أحبك واحترمك ؛ ولكنك حين تهينني بهذا الشكل تجبرني على ان لا اعود احبك او احترمك ! »

وابني فارس هذا فتى في الثامنة عشرة من عمره ، جميل وخجول، ولم اعتد منه جواباً مهما اشتططت في تعنيفه. إن اخوته الآخرين يخشونني كثيراً ـ وبعضهم اكبر منه سناً ـ ولذلك يتجنبون الردّ عليَّ ؛ أما فارس فانه الوحيد بينهم الذي لا يخشاني . ولكنه في الوقت نفسه يحرص على عدم ايذاء شعوري بأي جواب فيه خشونة أو قسوة ، إلا في هذه المرة .

انني اعترف ـ بيني وبين نفسي ـ بأنني مفرط في قسوتي عليه وعلى اخوته ، على الرغم من انني ذو ثقافة عالية . وقد اكون ورثتُ هذه القسوة عن والدي ، الذي لا اعرف انه ضحك قط مرة في وجهي ، ثم مضى عني وانا بعد دون

العشرين من عمري ، وخلفني لما هو اشد منه قسوةً وصرامة وتجهّما ، إذ خلفني اصارع الحياة وحيداً.

ولكن هل للوراثة وحدها كل هذا الاثر من القسوة التي أعامل بها اولادي ، منذ طفولتهم الباكرة حتى شبابهم العارم اليوم ؟!

إنني اعلم ، بحكم ثقافتي العالية ، وتجاربي الكثيرة في الحياة ، أن العلم والتجربة اعظم اثراً من الوراثة ، وأنهما يستطيعان ان يتغلبا على كل ما تتركه الوراثة والبيئة في الانسان من العادات غير الحميدة ، ومن الطباع السيئة . فالوراثة شيء يعلق بالغريزة التي لم يهذبها العلم ولا الاختبار ؛ اما الانسان العاقل المثقف المجرب فان الذي يضبط تصرفاته وطباعه هو العقل النير المجرب .

إذن ليست الوراثة هي التي تجعلني اتصرف مع ابنائي بكثير من الصرامة والقسوة ؛ فلا بد من ان يكون ثمّت سبب آخر ؛ ولعل هذا السبب الآخر هو حرصي الشديد على ان يخلو سلوك ابنائي من كل ما يستوجب التثريب واللوم . اريدهم جميعاً نماذج للأخلاق العالية ، وللبعد عن الرذائل

ومفاسد الاخلاق ، وعن كل ما تنهى عنه الاديان السماوية والاخلاق الفاضلة .

حقاً انا حريص على ذلك كل الحرص ، ولكنني حين اعود الى نفسي ، وأناقش الامور على ضوء ثقافتي العالية ، وتجاربي العديدة ، ودراساتي في كتب التربية وعلم النفس ، أرى ان القسوة كثيراً ما تقلب النتائج الى عكسها ؛ فبدلاً من ان اسير ابنائي في نهج الاخلاق الفاضلة والتقاليد السامية ، ادفعهم بقسوتي دفعاً الى التمرد والثورة ، والى الانطلاق من كل ما ارسمه لهم من مناهج اخلاقية ومُثُل عليا .

إذن ليست رغبة الاصلاح والتوجيه هي الدافع الحقيقي الى قسوتي وصرامتي في معاملتي لأبنائي ؛ فقد دلتني التجربة على ان كثيرين ممن يتخذون الارشاد عملهم في الحياة ، إنما يفعلون ذلك تغطية لما في نفوسهم من رغبات مكبوتة ، لا يستطيعون إطلاقها على حقيقتها ؛ فقد يكون فيهم الداعر الشبق الذي يود لو أبيحت له جميع نساء الارض ، ولا يرى حتى في صلاته غير اشباح نساء عرايا ؛ ولكنه لا يملك ان يحقق رغباته الجنسية كما يشاء ، فيعمد الى تنفير الناس من الشهوات المحرمة ،

ويستعين على ذلك بالله وكتبه ورسله . وقد يكون فيهم من يود لو يستطيع ان يسلب كل ذي ثروة جميع امواله، فيكدّس المال الحرام في خزائنه ، ويحرم الآخرين من كل ما يملكون ؛ ولكنه لا يجد سبيلاً الى تحقيق رغبته هذه، فيمضي يعلّم الناس القناعة ، وتوخي طاعة الله ومرضاته واليوم الآخر على كل عرض زائل ، وعلى كل جاه وسلطان ومتاع دنيوي .

وهكذا كثيراً ما تكون دعوة الفضيلة والاخلاق الحميدة ستاراً يخفي وراءه المرشدون والاخلاقيون رغباتهم المكبوتة الفاشلة .

فما الذي دفعني اليوم ـ كما يدفعني دائماً ـ الى الظهور بمظهر العبوس والصرامة مع اولادي ؛ مع انني ، في الواقع ، لا احب لأحد منهم سوءاً ، ولو اصيب أحد منهم بمكروه لما توانيت لحظة عن ان اجعل حياتي ثمناً لسلامته ونجاته ؟! اتراني ـ لا شعورياً ـ من اولئك الذين يسترون مشاعرهم الحقيقية بقناع الغيرة على الاخلاق ؟!

يخيّل الي أن هناك شيئاً بعيداً جداً عن الوراثة ـ وراثة

الصرامة عن والدي ـ وعن مجرد الرغبة في الاصلاح والتوجيه؛ أو لعلّ رغبة التوجيه كانت خالصة مجردة إبّان طفولتهم ؛ اما الآن ، وهم في عنفوان الشباب ، وليس فيهم من هو دون السادسة عشرة من العمر ، فالامر جدّ مختلف كما ارى . ولهذا لا بدّ من ان اناقش نفسي ، وان اصارحها بما تأباه وتهرب من معرفته . علي ان اكون صارماً معها مرة ، بعدما ان كنت صارماً مع اولادي كل المرات .

انا الآن كهل ، تجاوزت الستين من عمري . لقد خلّفت سن الشباب المتفتح ورائي. والشعر الابيض ينتشر في الاماكن التي لم يغمرها الصلع بعد في رأسي، بشكل لا يدع مجالاً لتفتّح الاماني ، وضحك الشباب وصبواته : هذا الشباب الذي أراه في كل جارحة من جوارح ابنائي : اراه في وجوههم النضرة كبراعم الربيع ، وفي شعر رؤوسهم البراق الذي يفتنّون في تمليعه وتصفيفه ، وفي ملابسهم التي يتأنقون في اختيار الوانها ، وانواع اقمشتها ، وطرائق تفصيلها ؛ واراه في ضحكاتهم الشابة التي يطلقونها من اعماق قلوبهم ، وفي مشيتهم المرحة القوية ، وفي قاماتهم المستقيمة المنتصبة ، وفي كل حركة من

حركاتهم . ولكنني اراه ـ اكثرما اراه ـ واشعر به ـ اكثر ما اشعر به ـ حين أسير مع واحد منهم في شارع ، او يضمني مـــع واحـد منهم مجلس فيه نساء ؛ فأرى عيون الحسان تطوقهم بالنظرات الحلوة الـتي يتفتح لها الربيـع في الصدور ، ولا ارى منهن نظرة واحدة تقع علي موقع العـــاطفة المؤملة المنعشة ...

أواه ! ... ماذا ؟!

انني لأكاد اهرب من نفسي الآن خجلاً وانا اصل الى هذا الحد ! .. ولكن ... أليس خجلي هذا اعترافاً صريحاً بالتهمة الفاتحة شدقيها في وجهي ؟! اتراني حقاً اغار من ابنائي بدافـع لا شعوري ، فأستر غيرتي هذه ـ لا شعورياً ايضاً ـ بالصرامة والقسوة ، وبمظاهر الغيرة على الاخلاق والفضيلة ؟!

إنني لم افطن قط الى هذا ، لأنني لم احاول من قبل ان اناقش نفسي في هذا الموضوع الخطير. والذي يجعلني اتهم نفسي الآن بهذه التهمة الخطيرة هو ما قرأته صباح اليوم في كراس صغير كان في جيب ابني فارس ، الذي عاد اخيراً من لندن حيث

يتابع دراسته الجامعية ، لقضاء جزء من عطلة الصيف بيننا. لقد ابحت لنفسي ان اسطو على جيبه اقلبه وأرى ما فيه ـ بدافع الفضول ، أو بدافع الغيرة المكبوتة ، أو بدافع الرغبة في صيانة الاخلاق والفضيلة ... لا ادري ! ـ ولكنني اخذت الكراس ورحت اقلب صفحاته ، فقرأت في احداها ما يلي :

[دعتني اخيراً زميلتي «جانيت» الى رحلة معها الى دبلن في ارلندة حيث تقيم اسرتها . انها فتاة ارلندية رائعة الجمال ، وافرة الغنى. لقد رغبت اليّ في مرافقتها لرؤية بلادها، والتعرف الى والديها . وما احبّ الدعوة من فتاة جميلة مثلها ! انها لدعوة لا يقاوم إغراؤها . ولذلك رافقتها بعد انتهاء العام الدراسي مباشرة ، وقضيت معها اسبوعين من اطيب ما عرفت من ايام العمر . لقد استقبلني ابواها بحفاوة بالغة إكراماً لها ، وأذنا لي بمرافقتها في نزهاتها في دبلن وفي انحاء اخرى من ارلندة . وكانت نزهاتنا ممتعة جداً، وعلى براءتها التي لم تتجاوز فيها مدى العناق الحلو واللهو البريء . ولما مرّ الاسبوعان ، شعرت وانا اودعها للعودة الى بلادي ، بأنني لا اضع يدي في يدها ، وانما اضع فيها قلبي وجوارحي كلها. وأمام والديها عانقتني

وقبلتني قبلة الوداع ؛ فعلت ذلك ببراءة اخوية تامة .

لو فعلت مثل هـذا فتاة في بلادي ، لسلقتهـا الالسنة بالافتراءات الداعرة المجرمة ، ولشوّهت سمعتها مدى الحياة !]

وفي صفحة اخرى من الكراس قرأت ايضاً ما يلي :

[تنزهت صباح اليوم في قارب على نهر التيمس مع زميلتي فيفيان . كانت السماء صافية ـ وما اقـلّ صفاء السماء في لندن ! ـ وكان النهر ساكناً هادئاً ؛ وكان في وجه فيفيان أجمل ما في السماء وصفحة النهر من جمال وروعة . ولم اكن أملك نفسي عن تطويقها وتقبيلها كلّما رأيتُها تفتح ثغرهـا بضحكة ، وكانت ضحـكاتها أروع من رنين الاجراس في الأعياد . وكانت تستسلم الى ذراعيّ في كل مرة بمرح شهيّ وحيوية .

آه ! لو رآني أبي إذ ذاك للقيتُ من خشونته وقسوة تأنيبه ما لا يصبر عليه حتى الصبر نفسه ! إنه لا يريد أن يدرك أننا هنا شبان نمارس الحياة من دون رياء ، أو كبت قاتل ، كما نفعل في بلادنا ، وكما تفرض علينا تقاليد بيئتنا الظالمة !]

وصفحات اخرى من هذا النوع قرأتُها في الكراسة التي سرقتُها من جيب فارس. فشعرتُ بالدم يغلي في عروقي. لقد خيّل إلي أن الفضيلة انتحرت في نفس فارس، وأن الأخلاق كلها قد تدنّست بالوحل. وفي ثورة نفسية محمومة رحت أمزّق الكرّاس قطعاً صغيرة، ثم دعوت فارس وشفتاي ترتقصان غضباً، فلما وقف أمامي صحتُ به عابساً غاضباً:

ـ إذن أنا أرسل اليك النقود للدراسة، وانت تنفقها على جانيت في دبلن، وعلى فيفيان في لندن، وعلى غيرهما من صواحبك؟! ألهذا أرسلتُك الى الجامعة؟ أهذه هي الأخلاق التي حرصتُ على ان القنّك اياها طول عمرك؟! أهذه نتيجة تعبي وسهري الليالي: أنا أتعبُ هنا في تدبير المال لدراستك، وأنت تنفقه بسخاء وأريحية على المومسات في الغرب؟

فقاطعني فارس محتدّاً:

ـ ليست جانيت وفيفيان من المومسات يا ابي؛ انهما من زميلاتي في الجامعة، وعلاقتي بهما وبغيرهما ممن أسخطتك رؤية أسمائهنّ في هذه الكرّاسة الممزّقة هي علاقة زمالة، وصداقة بريئة!

فصحتُ به غاضباً :

ـ إخرس ! علاقة بريئة ! ؟ وهذا الهزال البادي على جسمك ، أليس من اثر الافراط في الدعارة مع المومسات ؟ ! أهذه نتيجة تربيتي لك ؟ !

ومضيتُ في ثورتي الصاخبة أسمعه من الكلام أعنفه وأشدّه إيلاما ، حتى نفد صبره ، فقال لي ما قاله ، ثم خرج من امامي غاضباً ، وصفق الباب خلفه صفقة حانقة شديدة .

اتراني حقاً ثُرتُ عليه هذه الثورة ، واسمعتُه ما اسمعتُه من الاهانة والكلام الجارح لأنه انفق المال الذي كنتُ ارسله اليه على معاشرة المومسات ؟ ! وهل كنتُ على حقّ حين رميتُ أولئك الفتيات بهذه الصفة القذرة ؟ !

اكلّ فتاة تمشي مع فتى وتعانقه او تأذن له بتقبيلها هي مومسة حقاً ؟ !

يخيّل إليّ انني لم أقُل الصحيح حين ثُرتُ على ابني واتّهمته، واتّهمتُ معه فتيات بريئات من زميلاته. ولو عدتُ في العمر الى مثل سنّه اليوم لما فعلتُ إلا ما يفعله هو الآن ؛

ولكنني لن اعود الى مثل سنّه ، ولن يغطّي الشعر البراق المصفّف هـذه الطريق الصحراوية العريضة الـتي فتحتهـا السنون في رأسي ، والشيب الذي انتشر في بقايا الشعر على الجوانب يزداد كل يوم وفرة وامتدادا . إن الأيام تمضي بي قُدُماً الى حيث لا يعيش من النساء غير العجاف القاحلات؛ أما هو فان الأعوام الثمانية عشر تجمع حوله باقات العطر والزهر، وتفرش دروبه بالثغور الضواحك، والاذرع البضّة، والخدود النضرة . إن الحياة المقبلة عليه الآن ليس من حقي ان انغّصها لأنها مُدبرة عني ، ولأنني في شبابي لم استطع ان اجد الجوّ الذي تنطلق فيه نفسي على سجيّتها مثله ، واعبّر عن نوازعي وميولي بشكل صريح كما يعبّر هو الآن ، لأن المجتمع الذي كنتُ اعيش فيه كان قاسياً مجرما، يفرض من التقاليد والقيود الأخلاقية ما لا يطيقه حتى الملائكة ، فكنتُ لذلك اعيش على الكبت والحرمان، واحسب في الكبت والحرمان كل الفضيلة!

اكاد اسمع كل جارحة فيّ تتّهمني ، بملء القسوة ، بأن كبتي وحرماني ايام الشباب، وإدبار الحياة عني اليوم ، وإقبالها بكل مفاتنها ومباهجها على اولادي ، هي السبب في عنفي وقسوتي

على هؤلاء الأبناء الشبان ، فكأنني ـ لا شعورياً ـ احاول ان انتقم من الحياة بواسطتهم ، واودّ ان لا يلاقوا من حياتهم غير ما لقيتُ انا من الكبت والحرمان الدائمين !

لقد كشف لي ابني فارس اليوم عن نفسي ، واراني إياها على حقيقتها بمذكراته ! فما كانت ثورتي عليه ، وتمزيقي لمذكراته، غيرة على الأخلاق والآداب، ولا حرصاً على المال الذي ارسله اليه، ولا كانت قسوتي شيئاً مما ورثته عن والدي ومما طبعته البيئة في نفسي .

إن الاعتراف بالحقيقة صعب جداً حينما تكون جارحة قاسية بهذا الشكل الذي امثله الآن . . . ولكن الحقيقة لا تكون إلا الحقيقة نفسها ، مهما حاولنا ان نموه على انفسنا ، وعلى الناس ، بالباسها غير ثيابها ! . .

[لقد كنتُ اكره ان ارى
النســـاء يدخلن الكنيسة
للصلاة ؛ إن الشيطان يدخـل
الى الكنيسة في ثياب المرأة!..]

كنيسة القرية الصغيرة في عيد بهيج ؛ منذ الصباح الباكر يتردد رنين جرسها العتيق في الفضاء ، وتضحك جدرانها المقصورة بالطين الممزوج بالتبن ، والمبيَّضة بنقيع التراب الابيض بأيدي نسوة القرية ؛ وتضحك كذلك الصور المعلقة على الجدران لتمثّل مراحل درب الصليب الاربع عشرة ؛ وسقف الكنيسة المصنوع من عيدان القصب والدفلى وأشجار الحور ، تعلوها طبقة سميكة من الطين ، تزداد سمكاً سنة بعد أخرى بأيدي نساء القرية ايضاً ؛ والهيكل الخشبي الصغير بما عليه من الشموع المضاءة ، وطاقات الزهر التي جمعها الصبيان من مروج القرية وبساتينها ؛ وصندوق القربان المتربع في وسطه ، مغطى بقماش أصفر مقصَّب الاطراف ؛ كلها تضحك مغتبطة .

الترانيم تتردد في تلك الكنيسة الصغيرة منذ الصباح : من الخوري الذي يقيم الذبيحة الالهية المقدسة ؛ ومن جوقة المرتلين الصغار المتحلقين في مقدمة الكنيسة حول الارغن

الصغير القديم ، وعازفه القروي الذي يعزف عليه ايام الآحاد والأعياد منذ ان جيء به الى الكنيسة ، قبل عشر سنوات ، دون ان يدرس شيئاً عن الموسيقى والنوت ؛ ومن الجمهور الصغير الذي يملأ المقاعد الخشبية وجوانب الكنيسة كلها . الجميع يشتركون في الصلاة وفي الترتيل ، ويختلط مع اصواتهم الصادحة بين الفينة والفينة رنين الجرس الكبير المعلّق على جرسية خشبية خارج باب الكنيسة ، ليشاركهم حينما يرتلون: « المجد لله في العلاء، وعلى الارض السلام» او حينما يصدحون : « نؤمن بالله واحد، أبٍ ضابط للكل، خالق السماء والارض». وفي يد الطفل الذي الى يمين الهيكل ، خلف الخوري ، يرنّ من حين الى آخر جرس آخر صغير رنيناً حاداً طويلاً ، يختلط مع اصوات المرتلين وأنغام الارغن .

كان ذلك اول عيد اشهده في قريتي منذ سنوات ، حين غادرت القرية لأدخل ديراً للرهبان لكي أصبح كاهنا . وكان عيداً جميلاً ، شعرت فيه ـ كما لم أشعر من قبل ـ بجمال الاشتراك مع الناس البسطاء في صلاة العيد ، وفي التراتيل التي يصدحون بها من أعماق قلوبهم ، وبملء حناجرهم في صلاة

العيد. واشتركتُ معهم بقلبي وحنجرتي، فقد أحسست ان صلاة العيد في القرية الصغيرة البسيطة، وتراتيل العيد من أهلها السذّج الطيبين، هي عيد الأعياد، وهي الصلاة الصادقة التي ينفتح قلب الله لاستقبالها برضى وأبوّة حانية.

وخلف الشموع التي تتراقص اضواءها تتألها الصغيرة الصفراء على الهيكل، كانت تتدلى على الحائط صورة جميلة كبيرة للمسيح الطفل. يداعب بيديه الصغيرتين حملاً ابيض وديعاً راقداً امامه؛ على هذه الصورة الجميلة تسمّرت عيناي لحظة لا أدري كم طالت، بينما كنت اشترك مع المرتلين في الترتيل؛ والشمس في خارج الكنيسة تضحك للمروج والبساتين.

هذه الصورة كانت لديّ في الدير صورة مثلها صغيرة وجميلة جداً؛ وكنت أحب الصور الدينية واحتفظ لديّ بكثير منها، ولكن هذه الصورة كانت افضلها وآثرها عندي. كنت أضعها في كتاب الصلاة حينا، وفي كتب الدراسة احياناً اخرى: في كتاب اللغة اليونانية، او اللغة اللاتينية، أو اللغة الفرنسيه، او غيرها؛ ثم سرقها زميل لي في الصف ليغيظني، وحينما حاولت استردادها منه مزقها اربع

قطع ، وهرب الى الملعب وهو يضحك متشفياً ، فتناولت قطعها الأربع عن الارض ، وجعلت اجمعها واقبلها وانا ابكي بدموع حارة .

الدير ... زملائي هناك ... الرؤساء والمعلمون ... وانا طفل قروي في مدينة كبيرة ، وفي دير داخلي ذي نظام صارم رتيب ... والصلوات الكثيرة في الصباح الباكر ، وفي الظهر ، وفي العصر ، وفي المساء ، جميع ايام الاسبوع ... على الأرض نهيىء انفسنا ، منذ الطفولة ، لرحلة الابدية المرتقبة في السماء !.. هدايانا صور دينية وكتب صلوات ، ومسابح وصلبان وايقونات قديسين ؛ حتى اغانينا كلها ، في المدرسة ، وفي الرحلات الطويلة والقصيرة ، كلها ترانيم دينية ... ومطالعاتنا سِيَر القديسين . وفصول من العهد القديم والعهد الجديد ... لا يخرج عن هذا النطاق سوى كتب الدراسة ؛ ولو أمكن ان يكون الحساب والجبر والهندسة والفيزياء والكيمياء والجغرافيا والتاريخ كلها صلوات او سير قديسين ، وان تكون اللغات العربية واليونانية واللاتينية والايطالية والفرنسية جميعها تراتيل او تأملات روحية ، لفعلوا ... ولكانت علومنا

كلها إعداداً روحياً للسماء ، لا إعداداً عقلياً وثقافياً للارض وللحياة . . .

أربع سنوات في جوّ الصلاة والاعداد الديني ؛ لم أكن أتمنّى إلا أن اصبح في احد الأيام شهيداً لأجل الدين ، فأصير بعد ذلك قديساً ، كهؤلاء القديسين العديدين الذين أقرأ سيرهم في الكتب التي تزخر بها مكتبة الدير الكبيرة ؛ وتوزّع على البيوت واطفال المدارس صوري وايقوناتي المقدسة ، كهذه الصور والايقونات التي يهديها الينا رؤساؤنا ومعلمونا الكهنة في الدير ؛ ويختارني بعض الناس شفيعاً لهم عند الله ، كما نختار نحن شفعاءنا من القديسين فنتعبّد لهم ، ونكرم صورهم وايقوناتهم ، ونستجير بهم لينالوا لنا رضى الله وغفرانه ، وليهيئوا لنا في الآخرة مقاماً في فردوسه الأبدي السعيد !

لم اكن اكره خلال تلك السنوات الاربع سوى شيء واحد : المرأة كانت الشيطان الذى يهيىء النفس للخطيئة ! ولم اكن أدرك معنى الخطيئة ، ولكنني كنت اسمعها كثيراً ، واسمع انها تُغلق أبواب السماء في وجه مرتكبيها !

اذا خرجنا للنزهة ورأيت النساء يسرن في الشوارع بزينتهنّ وملابسهنّ الجميلة ، كالفراشات المرحة الملوّنة ، كنت أشيح بوجهي خجلاً ، و . . . اشمئزازاً . . . ربما خوفاً من الخطيئة ! حية حواء كانت تتراءى لي ملتفّة على جسد كلّ حواء ، كما هي ملتفّة على شجرة التفاح أمام حواء الاولى في الصورة التي رأيتها في كتاب العهد القديم ! وكنتُ أتساءل ازاء تلك الصورة : ترى أيّها الحيّة ؟ أهذه التي تلتفّ على الشجرة ، أم الآخرى التي تستمع الى إغرائها لتصبح إلهاً بدل الله ؟ !

لعلّ لشعوري الاسود نحو المرأة سبباً آخر الى جانب التربية الدينية في الدير . . . تربية القرية ! وهي لا تقلّ عنها صرامة . . .وآدابُ « وأغضضْ طرفي إن بدت لي جارتي » . . . كان لها في نفسي الطفلة انطباعاتها العميقة . وجاءت حياة الدير القاسية ،والتربية الدينية الصارمة ، والعيش تحت رقابة الكهنة والرهبان ، لتزيد من تلبّد الحسّ والادراك لديّ ؛ حتى لقد كنتُ اكره أن ارى النساء يدخلن الكنيسة للصلاة . . . إن الشيطان يدخل الى الكنيسة في ثياب المرأة ، ولا سيما التي

تضع المساحيق والأصباغ ، وترتدي الثياب الشفّافة القصيرة !

هنا في القرية يختلف الامر ، فما يدخل الشيطان الى الكنيسة ، لان ثياب القرويات ثقيلة على جسده ! . . .

لكن المرأة كانت ايضاً هناك ؛ ففي دير قريب للراهبات كانت فتاة من قريباتي طالبة داخلية ، تُهيىء نفسها لتصبح في أحد الايام راهبة ، كما سأصبح أنا راهباً . . وكنت ازورها أحياناً بحكم القرابة ، ولم يخامرني قط سوى هـــذا المعنى من قرابة الدم .

وأردتُ مرة ان اهجر الدير . . . كانت الحياة فيه صارمة ، وكنت أريد ان اكـــون حُراً . . . واستأذنتُ الرئيس في ان اذهب لاودّع قريبتي قبـــل مغادرة الدير . واستقبلتني في ردهة دير الراهبات ومعها راهبة . . . لقـــد بكت كثيراً حينما اخبرتها بعـزمي على الهرب من الحبس ، ونزلت دموعها في قلبي حارّة محرقة . فبكيت معها كثيراً ، حتى ان الراهبة التي كانت ترافقها لم تستطع البقاء معنا ، فتركتنا وحيدين ، ومضت هي ايضاً تكفكف دموعها الى غرفة اخرى تأثراً من موقفنا .

وقالت قريبتي حينما اصبحنا وحيدين :

كنت احب ان تصبح كاهناً وأصبح أنا خادمة لك . . .

عُد الى الدير ، وحاول ان تحقق أمنيتي :

ولكنني لم اقبل طلبها . . .

ومن بين الدموع المنهمرة على خدّيها نظرتْ إليَّ وقالت بنبرات جادة جازمة :

اذا تركت الدير فسأترك انا ايضاً ديري هـذا وأتبعك لاقترن بك ! . . .

تهديد امرأة ! . .

الراهبة التي كانت، تحوّلت الى لبوءة تزمجر ! وزمجرتها ترعبني !

تتبعني لتقترن بي ؟ ! كلا ! هذا لا يمكن ! . . إنـــه مصيبة لا قبل لي بها !

سأعود الى الدير ، وسأبقى فيه الى ماشاء الله !

ونهضتُ من مكاني ، ومددتُ اليها يـدي مودّعا دون دموع ، فقد نشّف تهديدهـا الدموع في عينيّ . وقلت وأنا اسحب يدي من يدها بسرعة :

اطمئنّي ! انا عائد الى الدير، ولن اغادره !

ولكنني عدتُ فغادرتُه بعد عام من ذلك اللقاء ، ولم أودّعها او اخبرها بعزمي هذه المرة !

لم تكن حواء في نظري حَمَلاً ابيض وديعاً ، كالحمل الراقد امام المسيح الطفل في هذه الصورة المتدلية على الحائط خلف الهيكل ؛ الصورة التي أحبّها وأفضّلها على جميع الصور الاخرى.

أترى سترافقني نظرتي هذه مدى الحياة ؟ ! إن الناس الذين اعيش بينهم الآن خارج الدير يقولون غير هذا. . المرأة مصدر السعادة ؛ المرأة منبع الجمال والحب ؛ المرأة عنصر الخير واللذة في الحياة ؛ الحياة من دونها لا خير فيها ولا جمال ولا لذة !

أأنا كنت اعمى ، أم الناس جميعهم عميان ؟ !

الواحد يخطىء في رأيه ، أمّا ما تتفق عليه الجماعة فحتى لو كان خطأ ، لا بدّ ان يكون صواباً ! . .

ستعيد الحياة صحة البصر الى عينيّ ، وصحة الادراك الى عقلي ؛ فقد بدأت ارى الدنيا غير ما كنتُ اراها في السنوات

الأربع الماضية . كل شيء جديد فيها ، وكل شيء جميل ، حتى سقف الكنيسة القروية المصنوع من خشب الحور والقصب والدفلى ؛ وحتى جدرانها المقصورة بالتراب والتبن ، والمبيّضة بنقيع التراب الأبيض بأيدي نساء القرية ؛ وحتى الهيكل الخشبيّ الصغير الذي يقف الخوري أمامه للصلاة ؛ والازهار البريّة التي جمعها الصبيان من مروج القرية ليزيّنوا بها الهيكل !

شيء واحد كان من قبل جميلاً في عينيّ وحبيباً الى نفسي ؛ وهاهو الآن معلّق أمامي على جدار الكنيسة فوق الهيكل ، وما يزال جميلاً في عينيّ وحبيباً الى نفسي كما كان من قبل : صورة المسيح الطفل والخروف الأبيض الصغير الراقد امامه بملء البراءة والوداعة !

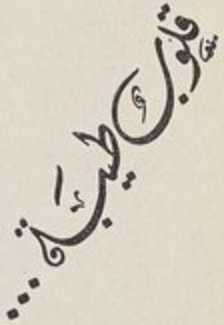

[...لقد زارهم «سانتا كلوز» في الليلة الماضية، لأول مرة في حياتهم، تماماً كما يزور اولاد السعداء...]

ـ ماما! لماذا لا تقيم جارتنا «أم سعيد» شجرة العيد في بيتها كما نفعل نحن ؟

ـ إنهم فقراء يا بنيّ ، وشجرة العيد تحتاج الى نفقات لا تتيسّر لأمّ سعيد من عملها .

ـ وأولادها ، يا ماما، لا يلبسون مثل ثيابنا الجديدة في العيد ، ولا ينفقون القروش لشراء الحلوى ، ولا يجدون شيئاً من الهدايا والدمى التي نجدها نحن يوم العيد .

ـ قلتُ لك انهم فقراء ، لا يتاح لهم ما نستطيع نحن ان نتمتع به في العيد وفي غير العيد .

ـ ولماذا كانوا هم فقراء ؛ ونحن أغنياء ؟

ـ لا تسأل اسئلة كثيرة ، يا نديم . متى كبرتَ فستعرف اشياء كثيرة لا تستطيع ان تعرفها الآن .

ـ ماما! ارجوك ان تقولي لي، ألا يزورهم «سانتا كلوز» ليلة العيد كما يزورنا ؟

ـ إن سانتا كلوز لا يعرف طريق الخيام والاكواخ

والمغاور ؛ ولذلك يظلّ اصحابها محرومين من بهجة الأعيـــاد وهداياها .

ـ ولماذا لا ندلّه نحن على خيمة جارتنا أم سعيد عندما يأتي ليزورنا في منتصف الليل ؟ إن اولادها صغار مثلنـــا ؛ ولكنهم لا يلعبون مثلنا بالدمى الجميلة يوم العيد !

ـ اوف ! لقد ضجرتني بأسئلتك! قلتُ لك انهم فقراء ، ولا يتاح لهم ان يجدوا المال لشراء الهدايا !

ـ ولماذا ليس لهم اب مثلنا ليبتاع لهم هدايا العيد ؟

ـ أبوهم مات ولم يترك لهم مالاً يعيشون به ؛ ولا إرثاً يستثمرونه .

ـ ومن اين يجدون ثمن الطعام إن لم يكن لديهم مال ؟

إن امّهم تشتغل طول النهار ، وتشتري لهم الطعام بما تكسبه كل يوم من عملها المرهق . الا تراها تأتي لتغسل لنـا الثياب مرتين كل اسبوع ؟ وهي تفعـــل مثل ذلك في بيوت اخرى كل يوم .

ـ ولماذا مات ابوهم يا ماما ؟

ـ ما اكثر اسئلتك ! لقد مات مريضاً !

ـ ولمَ لم يذهب الى المستشفى ليعالج من مرضه ؟

ـ لقد كان فقيراً! ولم يكن يستطيع ان يـــدفع اجرة الطبيب والمستشفى !

ـ ماما !

ـ ماذا! ألم تشبع بعد من الاسئلة ؟

ـ هل تأذنين لي بأن اظلّ مستيقظاً هذه الليلة حتى يجيء سانتاكلوز ؟

ـ ماذا تريد من سانتاكلوز ؟

ـ اريد ان ادلّه على خيمة ام سعيد !

ـ إن سانتاكلوز لا يذهب معك، لأن لديه عملاً كثيراً هذه الليلة .

ـ سأرجوه ان يرافقني . . . او سأدلّه على خيمتها فقط فيذهب إليها وحده . . . إن اطفال ام سعيد في حاجـــة الى الهدايا ليفرحوا بالعيد مثلنا !

ـ سيغضب ابوك اذا ظللتَ ساهراً الى منتصف الليل ، فلا تحاول ان تفعل ذلك .

ـ ارجوك يا ماما! إن انت طلبتِ ذلك منه فسيسمع منك.

ـ قلت لك إنك لن تسهر حتى يجيء سانتا كلوز . إنه لا يأتي والاطفال ساهرون ، بل ينتظر الى ان يناموا ، لكي يضع لهم الهدايا خلسة ، فهو لا يحبّ ان يراه الاطفال .

ـ ولكنّ خيمة ام سعيد غير بعيدة ، يا ماما ؛ واطفالها مساكين لا يجدون من يحمل اليهم هدية ! إنهم اطفال مثلنا ، ولكنهم لا يلعبون ولا يفرحون كما نفعل نحن !

ـ كفى ، كفى !

ـ ماما ! عندي فكرة . . .

ـ بماذا يفكّر الفيلسوف العنيد ؟ هات ما عندك !

ـ إن الهدايا التي احضرتماها لي ـ انتِ وابي ـ في عيد ميلادي ما تزال جديدة كلها . . .

ـ هه ؟ . . . وماذا بعد ؟

ـ وسيحضر لي سانتا كلوز هذه الليلة هدايا اخرى جديدة ؛ اليس كذلك ؟ !

ـ هه . . . ؟

ـ ولدى اخوتي دُمى اخرى لا يحتاجون اليها . .

ـ هه ! . . ثم ماذا ؟

ـ وسيكون لديهم في الصباح هدايا اخرى جديدة مما سيحمله اليهم سانتا كلوز الليلة . . .

ـ عجّل؛ قل ما تريد !

ـ لماذا لا نحمل الهدايا التي لدينا الآن الى اطفال جارتنا ام سعيد ، ونكتفي بهدايا سانتا كلوز الجديدة ؟

ـ . . . . ! ؟

ـ انهم سيفرحون بها كثيراً، وسيكون لهم عيد مثل عيدنا !

ـ هه ! . . فكرة !

ـ ولن يحتاجوا الى هدايا سانتا كلوز ، ـ ما دام كما تقولين ـ قاسياً الى حدّ انه يترك للمحرومين حرمانهم، ويكتفي بزيارة الأغنياء وحدهم !

ـ لقد بدأ حديثك يهمّني ! أتعني حقاً ما تقول ؟

ـ نعم يا ماما ؛ سأعطي ما لديّ الآن من دُمى وهدايا لأطفال جارتنا الفقراء ، مادام ليس لهم اب يُدخل الفرح

الى خيمتهم في العيد .

ـ ما أطيب قلبك يا نديم ! انت احسن من الكبار !

ـ هل توافقين يا ماما ؟

ـ هات خدّيك اقبّلهما !

ـ انتِ عظيمة يا ماما ! ستكونين انتِ سانتا كلـــوز لاطفال ام سعيد ، وسيفرحون كثيراً بهذا العيد لاول مرة .

ـ بل ستكون انت سانتا كلوز . ستحمل انت الهدايا اليهم في منتصف الليل في سلّة كالتي يحملها سانتا كلوز وهو يطوف بأولاد السعداء ليوزع عليهم الهدايا .

ـ ولكنكِ قلتِ انني لن اسهر الى منتصف الليل ؟ !

ـ بل ستسهر الآن ، وسأمضي معك الى خيمة ام سعيد ومعنا الهدايا .

ـ وابي ، ألا يغضب اذا ظلتُ ساهراً ؟ !

ـ ابوك سيعطينا نقوداً لنقدّمها الى امّ سعيد ، لتشتري

لهم طعاماً حسناً ليوم العيد .

ـ ما أعظمك يا ماما !

ـ وسنحمل الى اطفال ام سعيد مع الهدايا ثياباً جديدة يلبسونها للعيد .

ـ عظيم ! عظيم جداً يا ماما ! . . ثم هناك شيء آخر !

ـ ماذا ؟

ـ ألا ندعو ام سعيد واطفالها ليتناولوا الغداء معنا غداً؟

ـ إهـ ! إن كان هذا يرضيك !

ـ موافقة ؟ !

ـ وسيوافق ابوك ايضاً !

ـ انتما احسن ابوين في الدنيا يا ماما !

ـ وانت احسن طفل في الدنيـا يا نديم ! دعني اقبّلك مرة اخرى .

ـ ودعيني اقبّلك انا ايضاً يا ماما ؟

★ ★ ★

وعلى مائدة الغداء في اليوم التـــالي كانت ام سعيد تجلس الى جانب ام نديم ، واولادها الى جانب اولاد ام نديم، بثياب جديدة ، وقد شملتهم جميعاً فرحة العيد .

لقد زارهم سانتا كلوز في الليلة الماضية، لاول مرة في حياتهم ، تماماً كما يزور اولاد السعداء . . .

منصور بك !...

[حينما كنتُ في الدرجة العاشرة ، في بلدي هذا ، كنتُ احسدُ الذين وصلوا الى السادسة وما فوقها، لأنهم أصبحوا يدعون بلقب (بك)، ولأن هذا اللقب يثير تقدير الناس وإكبارهم في هذا البلد. اما الآن فقد زهدت نفسي بكل لقب ، لأنني تعلمتُ في الغربة ان ما يثير الاعجاب والاكبار هو العمل الكبير النافع، والخلق الرفيع القويم، وليس اللقب والمنصب !]

بدأ منصور العمل في خدمة الحكومة حين كان في السابعة عشرة من عمره ، وكان قد ترك المدرسة بعد أن أنهى الصف « الثامن » ، لأنه لم يكن في عمان حينذاك صف أعلى منه فيلتحق به ، ولم يكن في وسع والده أن يرسله الى مدينة (السلط) ، ليتابع دراسته في المدرسة الثانوية الوحيدة التي كانت في الاردن حينذاك ، ويتخرّج من الصف «العاشر» فيها ؛ فانقطع عن الدراسة وهو يشعر بأنه قد وصل الى كل ما في بلده من علم وثقافة. ونادرون جداً اولئك الذين كانوا يصلون في « العلم » الى الصف العاشر في بلده في ذلك الحين ، وأندر منهم جداً من كانوا يعرفون بعد ذاك طريق الجامعة .

ورمى منصور بعينه الى مكاتب الحكومة ، حيث يعمل اناس يعرفهم ابوه ، ويذكر أسماءهم أمامه ، مثل حليم بك ، وعبد الجواد بك ، وناصر الدين بك ، وعارف بك ، وكثير غيرهم ممّن وصلوا الى الدرجة السادسة فنالوا بذلك لقب « بك » ـ كما كان الأمر في ذلك العهد ـ وآخرون ممن لا يزالون

يتحيّنون الفرص ، أو ينتظرون دورهم في الوصول الى درجة البكوية ، فلا يخاطبهم المراجعون وأصحاب المصالح إلا بقولهم: « يا بك » « او « يا سيدي ! » .

وعيّن منصور في الحكومة بعد أن طاف أبوه بكثير من كبار الموظفين ، واستعان على أصحاب السلطان بالشفاعات والوسائط الشخصية ذات النفوذ والوجاهة ، فدخل موظفاً في الدرجة العاشرة ، وكان عمله حفظ الأضابير ، وتقديمها الى الموظفين الآخرين عند الطلب .

ومنذ أن أخذ مكانه من مكاتب الدائرة ، وصار له كرسيّ وطاولة ، بدأ يشعر بأنه إنسان له قيمته ، وبأن في البلد كثيرين ممّن يرجونه ويتشفّعون به للوصول الى قضاء مصالحهم ، وهم لذلك لا يدعونه إلا « منصور أفندي » ؛ و« منصور أفندي » خطوة أولى قبل أن يصبح اسمه «منصور بك » ! وكان كلّما عاد الى منزله يستمع الى الآمال التي يعلقها عليه أبوه وأمّه ، ويمنّيانه بها في مستقبل الأيام ، فيكاد يخترم الأيام والسنين بسرعة ليرى نفسه موظفاً كبيراً ، ومن حوله الموظفون الصغار والأذَنة ، يأمر هذا ، ويصيح بذاك ؛

فينتفخ صدره بالآمال العريضة .

وفي العهد الذي التحق به منصور بالوظيفة الحكومية ، كان الموظف شخصية عظيمة القيمة ، يحسدها الآخرون وينظرون اليها بمناظير مهوّلة ، تضخّم الأشياء اكثر من حقيقتها كثيراً ؛ فالمتعلمون في البلد قلّة ، وحالة الأهلين المالية لا تساعد على التفكير في طلب العلم الى أبعد من المدارس المحدودة الموجودة في البلد . ولذلك لا غرابة في أن يرى منصور نفسه واحداً من القلّة المثقّفة في البلد ، ومن الشخصيّات المرجوّة لدى ذوي المصالح من المواطنين .

حتى أبوه ، وقد نزح من قريته الى المدينة بعد أن استنزف المرابون كل ما كان يملكه في القرية من أملاك ، وقنع من دنياه بدكان صغير في أحد الاحياء الفقيرة مبنيّ من اللبن الطيني ، وبمنزل مستأجر ذي غرفة واحدة مبنيّة كذلك من اللبن ؛ حتى ابوه هذا صار يدعوه « منصور بك » تيمّناً بما سيصل اليه في المستقبل القريب أو البعيد . وكان هذا اللقب يطنّ في أذنيه طنيناً مدوّياً ، ويمنّيه بمنزلة رفيعة سيحتلّها في بلده .

ولكنه يعلم ، ويعلم كذلك أبوه الذي لم يتلقَّ من العلم شيئاً في قريته ، أن ابواب الدرجات لا تفتح بسهولة ، لأن مفاتيحها المسحورة بأيدي أرباب السلطة ، ولهؤلاء آراؤهم واذواقهم في منح الدرجات والترقيات ، وقلَّ ان تكون الكفاءة والمقدرة ومدة الخدمة من المؤهلات الحقيقية للترقية.

وكان منصور يعلم ان مؤهلاته العلمية وحدها ليست بالشيء الذي يكفي لتدرّجه في سلّم الترقيات. ولكنه يعرف كذلك الكثيرين من الموظفين الذين لا يزيدون عليه ثقافة ، يقفزون سلّم الدرجات بسرعة ، لأنهم يعرفون كيف يفوزون برضى رؤسائهم وذوي الشأن في دوائرهم ؛ فهم مع كل مقيم منهم : وزيراً كان أم مديراً ؛ انهم يتملّقون الجميع ليفوزوا برضى الجميع ؛ وليس اسهل عليهم من ان يحملوا على المسؤول الراحل ، ليظفروا برضى المسؤول القادم ، حتى اذا حدث ان عاد الأول الى مكانه هُرعوا لتهنئته وتقديم اقصى مظاهر التعظيم والتمجيد والاخلاص له .

امور كان يمارسها كلّ من عرفهم من الموظفين في كلّ دائرة ، وكان الكثيرون مما يمارسون هذا النفاق السافر

يفوزون برضى المقيمين والراحلين من المسؤولين ، ويسرعون لذلك في ارتقاء سلّم الدرجات قفزا ، سنتان او ثلاث سنوات على الاكثر في كل درجة ، او قد يضرب الحظ ضربته فلا يزيد بقاء الواحد منهم في درجته اكثر من سنة واحدة ، بينما يقعد الحظ الكابي بأصحابه ، فلا يتخلّصون من الدرجة الواحدة في اقل من خمسة عشر عاماً .

هذه كانت سنّة الناس في الوظيفة : « الشاطر بشطارته ! » و « اطعم السنّ بتستحي العين ! » و « اللي ماله واسطه ما بعيش ! » ؛ وكان جديراً بمنصور ان يسير على هذه « القواعد الذهبية » ليصل الى غايته بسرعة ، لو كان يجيد هذا الضرب من التمثيل والتهريج . ولكنه ليس مثل الآخرين ... إنه شديد الحياء ، فلا يعرف كيف يقف على الأعتاب ، ويعدّل ربطة العنق ، ويسوّي ازرار الجاكيت كلّما استدعاه رئيس ، او مساعد رئيس ، او موظف ذو مكانة في الدائرة ؛ ولا يعرف كيف يجيب على كل كلمة يلقيها اليه مَن يستدعيه بانحناءة من راسه ، وبعبارات الخضوع والطاعة المألوفة : « امرك سيدي ! حاضر سيدي ! على راسي

سيدي ! بكل احترام يا مولاي ! »

لقد كانت هذه هي الكليشيهات التقليدية التي يستخدمها زملاؤه في دوائر الدولة لارضاء رؤسائهم ، ثم هي في الوقت نفسه العبارات التي تدلّ على مدى التهذيب واطيب الأخلاق ! وهو جدير بأن يفعل كما يفعل الآخرون ، ويقول كما يقولون ، والاّ فان مكانه سيظلّ في اسفل السلّم ، بينما يسبقه الآخرون قفزاً إلى اعلاه . ولكن هل من الكرامة في شيء ان يضطرّ المرء الى التملّق والنفاق ، وتقبيل الايدي والاقدام لاجل الترقية وتحسين المركز ؟

وراحت الايام تتعاقب بطيئة ثقيلة ، تتبعها الشهور والسنون ، حتى قضى منصور في الدرجة العاشرة عشر سنوات كاملة ، لم يتغير فيها نوع عمله ، ولم يصبه فيها حظ الترفيع ، بينما اصاب هذا الحظ عدداً من زملائه واصدقائه ، في دائرته نفسها وفي دوائر اخرى ، فوصل بعضهم ، ممن لم تزد ثقافتهم المدرسية على ثقافته ، الى الدرجة الثامنة ، وبعضهم اصبحوا يقفون على عتبة السابعة ، لانهم كانوا اقدر منه على النفاق والتلوّن ، وعلى الوصول الى ذوي النفوذ في البلد ممن لا تُرَدّ

طلباتهم عند الرؤساء وذوي الشأن .

واخذ منصور يشعر بكثير من الهوان حينما يعود الى البيت ، ويرى نظرات الخيبة في عيني والده ، ومرارة الانكسار في حديث امّه . ولم يعد يسمع من ابيه اسمه مقروناً بلقب (بك) بعد مضيّ هذه السنين العديدة الثقيلة والعاشرة ما تزال عاشرة ، لم تتزحزح عن مكانها .

وكان يزيد في هوانه ما كان يسمعه من مفاخرة زملائه واصدقائه بالدرجات التي رفعوا إليها ، والوسائل التي استخدموها للوصول الى هذه الدرجات . إنهم يقفزون قفزاً نحو درجة البكوية ، اماهو فما يزال بينه وبينها ثلاث درجات، فاذا حسب لكل درجة عشر سنوات كالتي قضاها في العاشرة ، فانه لن يصل الى « البكوية » الاّ بعد ثلاثين سنة اخرى، غير السنوات العشر التي مضت في العاشرة ؛ وهكذا لن يدعوه المراجعون باسم (منصور بك) إلاّ بعد ان يتجاوز السابعة والخمسين من العمر ، وربما بعد ان يُحال على المعاش !

وبدأ الصراع في نفسه عنيفاً جداً . لقد خاب امل ابويه به ، وخاب امله بنفسه . ولكنه لا يستطيع ان يتوسل

بالوسائل التي يلجأ اليها الآخرون للترقية ، فما يكاد الواحد منهم يقضي سنة او سنتين او اكثر قليلاً في الدرجة ، حتى يقفز الى ما فوقها بشفاعة وسيط ، او نفوذ كبير ، او بتملّق الرئيس الاصغر والرئيس الاكبر ؛ وهو يعرف ان البعض منهم كانوا يبذلون الرشوة للوسطاء وغير الوسطاء ، فيشترون بها الدرجات .

وماذا يفعل هو ؟ ايرشو « وسطاء الخير » ، وبعض الرؤساء الذين لا يتورعون عن قبول الرشوة ؟ ام يتشفع بذوي النفوذ ؟ ام ينافق ويتلوّن ؟

إن في داخله لصوتا عنيفاً يهتف به : لا تفعل ! كرامتك فوق الدرجات ! ولتذهب البكوية الى الجحيم ! إن رضاك عن كرامتك وعزة نفسك افضل من كل ذلك !

ويصغي منصور الى ذلك الصوت الداخلي فيتخاذل . إنه ليؤمن حقاً بأن كرامته فوق الدرجات وفوق البكوية ، ولكنّ ابويه لا يؤمنان بذلك . وزملاؤه الذين سبقوه في الدرجات يعيّرونه ويشمتون به ، ويكاد يرى في كل كلمة من كلامهم ، وكل اشارة من اشاراتهم معنى السخرية والهزء

والشهامة ... « لو كان شاطر ما بعده لليوم بدرجته ! ... اي هي الدرجات بتيجي تركض لوحدها ؟ كل شيء بدّه لحلحة ! .. »

وكان منصور يستطيع ان يحتمل ذلك كله من ابويه ومن زملائه ، ولكن هناك شيئاً آخر لا يطيق احتماله ، وهو وحده الذي يملأ نفسه بالمرارة والنقمة والقنوط ، فحتى (نادرة) ابنة خالته ، التي كا يمنّي النفس بأن يقترن بها حين يتحسّن مركزه وتعلو درجته ، اصبحت هي ايضاً لا تستطيع ان تخفي خيبتها فيه.

كانت نادرة حينما التحق منصور بخدمة الحكومة طفلة في العاشرة من عمرها ، وهي الآن في العشرين . لقد كان يحبّها كثيراً . وكانت هي تحبّه منذ سنوات ، وكان حديث زواجهما في البداية يملأ اغلب الزيارات المتبادلة بين امّها وامه. وكانت هي في البداية تشعر بالفخر لان ابن خالتها موظف ، والمستقبل امامه مفتوح ، ويسعدها ان تقترن به . وكانت تمنّي النفس في انه لن يلبث ان يصبح موظفاً كبيراً ، فتحسدها رفيقاتها على زواجها به ، حين تصبح (زوجة منصور بك !)

ولكن تعاقُبَ الأيام والسنين ، والدرجة العاشرة لا تتزحزح ، جعلها تنكمش على نفسها وتشعر بالخجل ، فقد راحت زميلاتها يتهامسن فيما بينهنّ حول ابن خالتها الموظف الصغير الخائب ! وزاد في خيبتها وانكماشها أنها سمعت مرّة رفيقة لها تحدّث أخرى وتقول : « كلّ الناس يمشوا لقدام ، ومنصور وحده بمشي لـوَرا !.. » فتجيبها الأخرى : « هـذا بخت نادره اللي بتتباهى فيه ؟ يمكن يكون كعبها اللي خلاّه يخيب ويظلّ بمكانه عشر سنين ورا بعض ! الدنيا وجـوه وعتبات !! » ثم تضحك الفتاتان شامتتين ، ولا تفطنان الى وجود نادرة الاّ بعد أن تجتازهما مسرعة ، وتلمحا في عينيها دموعاً تحاول أن تخفيهما .

منذ ذلك الحين أخذت نادرة تقلّل ما استطاعت من زيارة خالتها ، وتتحاشى جهدها الخوض في حديث الزواج ، وجعلت تلحّ على أمّها ان لا تبحث هذا الموضوع أو تطرقه مع خالتها. وكان ذلك مثاراً لدهشة أمّها وخالتها معا ، وإن كانتا هما ايضاً تشعران بالألم والخيبة لعدم تمكّن منصور من تحسين مركزه بالترقية ولو درجة واحدة .

وأحسّ منصور إحساساً رهيباً بالجوّ الكئيب الذي يحيط به . لقد أصبح يكاد يختنق في هذا الجوّ المحموم . حتى نادره لم تعد تزوره ، بل أصبحت تتهرب من رؤيته ، واذا رأته من بعيد في الطريق تجنّبته ، ولم تعد تضحك له ، أو تؤنسه بكلمة !

لقد كان ذلك اكثر مما يطيق .

ولكنّ نادره لم تكن كرهه ؛ كانت على العكس تحبّه كثيراً . إنها تريده زوجاً لها ، ولكنّ أحاديث الناس الشامتة تجرح كبرياءها . إنها تودّ لو تستطيع أن تسحق هؤلاء الناس بقدميها ، وتقف وحدها الى جانب منصور في المعترك ، تسنده وتقوّي عزيمته . « ليش ، هُم كلّ الناس اللي بتجوّزوا موظفين كبار وبكوات ؟! » ولكنّ كبرياءها ، وتقاليد المجتمع الذي تعيش فيه ، ترغمها على أن تكبت الحبّ في قلبها . وهي لم تيأس ، وإن كان اليأس من نجاح منصور قد ملأ نفوس الآخرين من حولها .

وهي لا تجرؤ على ان تبوح لمنصور بمشاعرها هذه ، فقد تزيد بذلك من جراح كبريائه . وخير لها أن تصمت ،

وان تبتعد ، فقد تدور الايام بغير ما دارت به حتى الآن ، على الرغم من عنادها الطويل .

ورأى منصور أن البقاء في بلده أصبح بغيضاً . إن عليه أن يهرب من الجوّ الخانق الذي يعيش فيه .

لقد كان في وسعه أن يقف في الميدان صابراً ، رابط الجأش ، لو وقفت معه نادرة ؛ أما وقد ابتعدت هي ايضاً عنه ، فيجب أن يغادر البلد ،ويضرب في الغربة بكل ما يستطيع من جهد وطموح ، وما في ساعديه من قوة ، فقد يتاح له أن يحيل خيبته في بلده الى نجاح في بلاد الآخرين ، وعند ذاك يثبت لكل من حوله أنه لم يخب لخمول في عزيمته ، أو قصور في ذكائه ، أو نقص في مقدرته ، بل لاسباب أخرى من خراب بعض الضمائر ، ومن تفشّي المحسوبية والرشوة والوساطات والنفاق ، مما لم يكن يستطيع مسايرته والتمرّغ في حمأته كما يفعل الآخرون .

ولم يصارح أحداً بعزمه ؛ حتى نادره ـ وهي كلّ شيء له ههنا ـ لم يقل لها شيئاً . وبعد شهور من السعي الدائب الصامت حصل على تأشيرة سفر الى اميركا ، فقدّم استقالته

من الوظيفة ، وغادر بلده بين دموع أبويه وتوسلاتهما . ولم يذهب لوداع نادره . وادركت هي السبب ، وعذرت منصوراً ، وتمنّت أن يعود من غربته ناجحا .

★ ★ ★

منذ اللحظة التي صمّم فيها على الاغتراب ، وضع لنفسه هدفاً يسير اليه ، وبرنامجاً يبلغ به الى هدفه ؛ وكثيراً ما تكون الخيبة في البداية سبيلاً الى النجاح فيما بعد . وقد أراد منصور ان يحيل خيبته في بلده وفي مستهل شبابه الى نجاح في مغتربه ؛ وهو يعلم أنه ذاهب الى دنيا لا تعرفه ، ولا هو يعرف فيها أحداً ؛ ويعلم إنه سيشقى ، وسيصارع الفاقة والحرمان ، ولكنه مصمّم على ان ينتصر مهما كلّفه ذلك من جهد وصبر وتضحية ، ثم يعود الى بلده ، ويرغم أهله على تقديره واحترامه بعلمه ومقدرته .

وفي اميركا كان على منصور أن يبدأ من أسفل السلّم ، فبدأ خادماً في مطعم يغسل الصحون والحلل ؛ ثم انتقل عاملاً في احد المصانع الكبيرة . وفي المصنع قرّر منصور ان

يستقرّ ، وان يقضي مرحلة الغربة وفق برنامج عملي صامت ، ولكنه في صمته جازم مصمّم .

كان يجعل نهاره للعمل ، ومساءه للدرس ، فقد اراد ان يجاهد مااستطاع ليحصل على شهادة جامعية مهما يطل عليه الامد .

ومضى في برنامجه لا يدير بالاً الى شيء من مغريات الحياة الاخرى ، الا ما قلّ ؛ ولم يرضَ ان يلهيه شيء عن هدفه مهما يكن فيه من المغريات .

ومضى على عمله في المصنع عام واحد ، كان في خلاله يبدي من ضروب النشاط والمثابرة ما استحقّ عليه تقدير رؤسائه وحبّ زملائه . فازداد راتبه ، وارتقت درجته ؛ وكلما ازداد في عمله اتقاناً ومهارة ازداد تقدير رؤسائه وتضاعفت اجوره . وما كاد يكمل عامه الخامس حتى اصبح سكرتيراً خاصّاً لمدير المصنع .

خمس سنوات في الغربة توصله الى مركز سكرتير لمدير المصنع ، وعشر سنوات في بلده لم ترفعه حتى الى الدرجة التاسعة ، التي لم يكن يزيد راتبها على تسع جنيهات في الشهر !

ولكن الامر مختلف هنا عنه هناك ؛ فهناك يقدر الناس عمل العامل والموظف ومقدرته ونشاطه ، وهناك كانوا ينظرون الى شفعائه ووسطائه ، ويقدرون نفاقه وتلوّنه ؛ فان لم يكن له وسطاء وشفعاء ذوو نفوذ ووجاهة ، وإن لم يحسن النفاق والتلوّن ، لم يتقدم في مركزه ، ولم يجد تقديراً لدى الرؤساء .

عشر سنوات في الدرجة العاشرة هناك ، وفي وظيفة « حافظ أضابير » ... وهنا ... بخمس سنوات قفز من عامل بسيط الى مركز سكرتير لمدير المصنع . ومنصب مدير المصنع هنا ليس أقلّ أهمية من منصب مدير دائرة هناك ؛ ومركزه هو الآن لا يقلّ عن منصب وكيل لمدير الدائرة في بلده ، بل هو أعلى راتباً من ذلك بكثير جداً !

أليس من سخف الأيام أن يصل منصور هنا ، في خمس سنوات ، الى منصب لم يكن يطمع في بلده بأن يبلغ ما هو دونه ، حتى بعد خدمة خمسين سنة أو اكثر ؟! بل لم يكن له أمل ، أو بصيص من أمل ، في بلوغ مثله !

ومضى منصور في برنامجه ، يعمل في النهار ويدرس في

الليل ، ونجاحه في دروسه لا يقلّ عن نجاحه في عمله ، والحظ يبتسم له ، ويفرش له طريق المستقبل بالورود .

ولم ينسَ منصور والديه في غربته ، فكان يدّخر مما يكسبه كل شهر قسطاً من المال يبعث به اليهما ، مشفوعاً بأخبار نجاحه وتقدّمه العلمي والعملي . وبهذا المال الذي كان يرسله استطاع أبوه أن يوسّع عمله ويحسّن تجارته ، وأن يبني بيتاً حسناً جميلاً في المدينة .

وأخذ أهل بلده يتناقلون أخبار نجاحه ، ويتحدّثون عنه في مجالسهم غير ما كانت أحاديثهم عنه قبل الأغتراب : « الله طلّ عليه في اميركا !.. لو ظلّ هون كان بعده في العاشرة !.. مين حافظ أضابير صار اليوم سكرتير مصنع ، وبدرس في الجامعة كمان !.. هيك الزلام والاّ بلاش !.. بشطارته صار أبوه وجيه يتصدّر المجالس ، وينسمع كلامه !.. مش صحيح إنّه الغربه بتضيّع الأصل ، هذي هيه خلّت منصور يصير ويتصوّر ، ويجمع ثروه ومال وعلم !.. »

هكذا كانت تدور الأحاديث بين الرجال والنساء من أهل بلده ، وهم يتساءلون : « اتراه سيعود الى بلده ، أم يبقى

بعيداً عن البلد الذي لم يلق فيه غير الخيبة ! » فمن قائل إنه سيعود ليخدم بلده ، وسينال فيه مركزاً رفيعاً ؛ ومن قائل انه سيظلّ بعيداً عن كلّ ما يذكّره بخيبته الاولى .

أما نادره فقد كان يُفرحها كثيراً ما تسمع من أخبار نجاحه في الغربة ، ولكنها الى جانب ذلك كانت شديدة القلق من أن يطير من يدهـا الى الابد ، ففي أميركا حسان لا عدّ لهنّ ، وفيهنّ إغراء وفتنة ليس من اليسير أن يثبت لهما شابّ كان في بلده الشرقيّ المتزمّت يعاني الحرمان ، وأصبح الآن يعيش في جوّ من الفتنة لا حدّ له .

كان ذلك يقلقها كثيراً وينغّص عليها صفو الحيـــاة . وكانت أمها وخالتها تلمسان ذلك في عينيها وحديثهـا . وكان اكثر ما يؤذيها أن تسمع على ألسنة رفيقاتها احاديث عنـــه تصيب كبرياءها بجراح بليغة . فقد قالت لها مرة إحداهنّ ممازحة :

ـ العصفور طار من القفص ، وانتِ إيش بَعـــدك بتستنّي ؟!

وقالت لها اخرى ، ممازحة كذلك :

ـ يا اختي علينا وعلى بختنا ! هو اللي بروح برّا وبشوف الشقر والبيض ، عُمره برجع لنا ؟!

وقالت ثالثة متنهّدة :

ـ يا حسره على بختنا ! هناك شبابنا بشوفوا اشياء بتطيرّ العقل ... الذُرعان والصدور والسيقان كلّها عريانه ... والواحد منهم بروح مع اللي بتعجبه عالمطاعم وشمّات الهـــوا والتيارات ، وما حدا بقول له وين رايح !.. اي شو بدّه يرجعهم لعندنا ، اللي واحد منهم إن حكى مع اخته في الطريق بسمع الف كلة ، وإن زار بيت عمّه او بيت خاله بحكوا عليه اشكال والوان !؟..

وحقاً لقد كان منصور يرى من الفتنة ، ويجد من حرية الاختلاط كلّ ما تشتهيه نفسه ، وكان يستطيع أن يتزوّج منذ العام الاول لوصوله الى اميركا ، ولكنه وضع لنفسه برنامجاً عسيراً يحتاج الى كلّ جهوده ووقته ليصل به الى هدفـــه ؛ وليس الزواج من برنامجه ولا من هدفه الآن .

ولكنّ فتاة شقراء ، من زميلاته في الجامعة التي يدرس فيها ، كانت تعجب به في أول الأمر ، ثم تحوّل إعجابها الى

حبّ . وكثيراً ما كانت تطلب اليه أن يرافقها في نزهة ، أو يأخذها الى مقهى أو مطعم ، ولكنّه قلّما يستجيب لها ، فقد كان وقته - بين العمل والدرس - أضيق من أن يتّسع لذلك اكثر من مرة واحدة في الاسبوع ، كان يمنح نفسه فيها إجازة نصف يوم للراحة . وقد رافقها أول مرة الى أحد المطاعم ، فراحت تسأله عن نفسه ، وعن بلده ، وعن حياته ؛ وكان يجيبها باقتضاب .

وفي المرات التالية أخذت تكشف له عما في صدرها ، وتبدي له رغبتها في الاقتران به . وعند ذاك حدّثها بكل شيء ، وأطلعها على برنامجه الطويل القاسي ، وكشف لها عن هدفه من الغربة . فكان إعجابها بصبره وجلده كبيرا . فقالت له إنها ستقف الى جانبه ما استطاعت ، وسترقب تحقيق برنامجه بصبر مثل صبره ، ولن تيأس من انتظاره .

وأحسّ منصور بأنه يستطيع أن يطمئنّ إليها ، ويجد لديها العون على بلوغ هدفه . فلم يدعها تنتظر طويلا .

كان هو حينذاك سكرتيراً لمدير المصنع ، وطالباً في السنة الرابعة الجامعية ، وكانت هي طالبة في السنة الثالثة .

فاقترنا ، واستمرّا في دراستها حتى نالت هي شهادتها في التربية بعد سنة واحدة ، ونال هو شهادته في الهندسة الميكانيكية بعد سنتين .

وعلمت نادرة بزواجه ، فبكت كثيراً ، ولكنها لم تستطع ان تلومه ، فقد تخلّت هي عنه حينما كان يحتاج الى انسان واحد يقف الى جانبه ، ويثبّت عزيمته أمام عواصف الخيبة والفاقة . وهي الآن تجني ثمرة الجفاء الماضي .

وهي تعرف أنها لم تتخلّ عنه راضية ، ولا جفّته راغبة في الجفوة ، وكان كلّ أملها ان ينجح ، وان يعود فيقترن بها ، فتُسكت بذلك السنة الثرثارات الشامتات من رفيقاتها . ولكنه الآن طار من يدها حقّاً ، كما كنّ يقلن ، وهي الملومة وحدها على ذلك .

★ ★ ★

بعد ان نال منصور شهادته الجامعية راى ان برنامجه قد انتهى ، وان هدفه قد تحقّق . لقد وصل الى مركز طيّب في المصنع ، واصبح والده ، بفضل ما ارسله اليه من مال ، في

مركز حسن بين اهل بلده . فاذا ما عاد الآن الى وطنه فلن يكون إنساناً مغموراً ، بل سيجد الدوائر الحكومية والشركات تفتح له صدورها ، وسيتبوأ منها مركزاً رفيعاً ، اذا لم يشأ ان يعمل عملاً حرّاً لنفسه .

وحقّاً إن ايّ منصب في بلده لن يدرّ عليه من الربح اكثر من جزء صغير مما يكسبه الآن في غربته . ولكنّ الغربة ، على كل حال ، امر لا يُحتمل طويلا ، والوطن عزيز على اهله مهما تكن الحياة فيه سيئة او قاسية .

ومنصور لم يغترب عن وطنه كارهاً له ، وإنما غادره لأمر واحد ، وقد انتهى الآن ذلك الأمر ، ووطنه احقّ به من ديار الأجانب ، على الرغم من انه اصبح الآن مرشّحاً لتولّي منصب المساعد الفني لمدير المصنع العام ، بعد ان نال شهادة الهندسة الميكانية ، مضافة الى الخبرة التي اكتسبها في سنوات العمل .

كان الاغراء هنا يجذبه بكل وسائله ، وكان الحنين هناك يجذبه بكل وسائله كذلك ، والحنين اقوى من ايّ إغراء آخر ؛ ومنصور من الشعب الذي يقول شاعره :

بلادي وإن جارت عليَّ عزيزة
واهلي وإن ضنّوا عليَّ كرام

فنفحة من نسيم وطنه ، وزهرة من رباه ، احبّ الى نفسه من كلّ ناطحات السحاب في بلاد الآخرين .

ولكنّ شيئاً واحداً عاق منصوراً عن العودة بعض الوقت . لقد مرضت زوجته ، واضطرّت الى دخول المستشفى فترة من الزمن ، ثم خرجت منه بعد اكثر من شهر دون ان تشفى شفاءً تامّاً ، وظلّت تتقلّب على اشواك المرض الخبيث وشفاره الحادّة فترة اخرى ، فقد كانت مصابة بسرطان المعدة ؛ وعلى الرغم من كلّ ما بذله الطب في علاجها فقد نفذ فيها حكم الأقدار ، بعد آلام مبرّحة تجرعت غصصها اكثر من ستة اشهر .

وكان موتها سبباً آخر يجعل منصوراً يُسرع في العودة الى وطنه واهله ، فلم يمكث بعد وفاتها اكثر من شهرين ، ثم كتب الى والده يخبره باعتزامه العودة ، ويحدّد له موعد الوصول .

وحمل منصور جراح قلبه الدامية ، وركب الطائرة

عائداً الى البلد الذي غادره قبل ثماني سنوات فتىً تملأ نفسه مرارة الخيبة . وفي مطار بلده كان في استقباله ابوه وعدد كبير من اقاربه وزملائه القدامى في العمل وبعض الموظفين الآخرين الذين كان يعرفهم ، وقد وجد بينهم عدداً غير قليل لايزالون في وظائف صغيرة ، ولم يتح لهم الحظ فرصة الارتقاء في الدرجات ، فكانوا يصافحونه وفي عيونهم نظرات الحسد والخجل معاً ، وهم يرحّبون به قائلين :

ـ أهلا وسهلا منصور بك . الحمد لله على السلامه !

منصور بك ؟!

كم كان يودّ من قبل أن يصل في بلده الى الدرجة التي يخاطبه فيها الناس بهذه العبارة ! أما الآن فما ازهده بهذا اللقب ، وما أسمج ان يدعوه به الناس . ولذلك اجاب بعض مهنّئيه بقوله :

ـ انا لستُ منصور بك . انني لا ازال منصور بن محمد الراضي ، كما كنتم تعرفونني !

ولكن الذين جاؤوا في المساء الى بيت والده ليسلّموا عليه ، لم ينقطعوا عن تسميته « منصور بك » ، فكانوا

يقولون له :

ـ الحمد لله على سلامتك ، يا منصور بك !

ـ غيبتك طالت يا منصور بك !

ـ والله اشتقنالك يا منصور بك !

ـ البيت نوَّر يا منصور بك !

او يخاطبون والده بقولهم :

ـ يهنيك بسلامة منصور بك ، يا ابو منصور !

ـ والله الدار بدون منصور بك ما كانت حلوه !

وبكثير من اللطف والحياء قال منصور وهو يشكرهم على ترحيبهم به :

ـ اذا كان في الناس من يعتقدون بان لقب (بك) يزيد في اقدارهم ، ويرفعهم فوق منازلهم ، فلستُ احبّ ان يكون لي قدر ومنزلة الاّ بخلقي وانسانيتي ؛ والفُ لقب رفيع على ارنب او ثعلب لن تخلق من ايّ منها اسداً ؛ وتجريد الأسد من كل لقب لا يحيله ارنباً او ثعلباً . والذي ينتفخ بالالقاب هو انسان محروم من كل قيمة ذاتيـــة ، لذلك يكبر باللقب وحده .

وبين دهشة الحاضرين ونظراتهم فيما بينهم باستغراب لهذا الكلام الجديد على اسماعهم ، مضى منصور يقول :

- حينما كنتُ في الدرجة العاشرة في بلدي هذا ، كنت احسد الذين وصلوا الى السادسة وما فوقها ، لأنهم اصبحوا يُدعون بلقب (بك) ، ولأن هذا اللقب يثير تقدير الناس وإكبارهم في هذا البلد ؛ اما الآن فقد زهدت نفسي بكل لقب ، لأنني ادركت في الغربة ان ما يثير الاعجاب والاكبار هو العمل الكبير النافع ، والخلق الرفيع القويم ، وليس اللقب والمنصب . الناس هناك يتدرَّجون في الوظائف والمناصب بحسب مقدرتهم ونشاطهم واخلاقهم ، لا استجابة لنفاقهم ووساطاتهم وشفعائهم . وقد تعلَّمتُ من ذلك دروساً كثيرة كنتُ في حاجة الى تعلّمها ، ونتيجةً لهذه الدروس وصلتُ الى اكثر مما كنتُ اتمنّاه من النجاح في العمل وفي الحياة ، دون ان ابذل شيئاً من كرامتي وانسانيتي !

★ ★ ★

وبعد السهرة وقف منصور يودّع زائريه على باب المنزل ،

ويشكرهم على الزيارة ، فلما خرج الجميع ، واستدار منصور ليعود الى داخل المنزل ، راى يداً خجـــولاً مترددة تمتدّ لمصافحته ، ووجهاً مطرقاً الى الارض بحياء وحزن ، تحاول صاحبته ان تخفي الدموع المترقرقة في عينيها بابتسامة خجلى . فامسك باليد الممدودة نحوه بكلتا يديه وراح يربت عليهـا ، ثم افلت احدى يديه ورفع بها الوجه الحزين الخجول الذي امامه ، وابتسم ابتسامة ملؤها الرضى والتشجيع ، وعادت الى قلبه ذكريات الحب القديم حيَّة نابضة من جديد ، فقال :

ـ نادره ! انا اعرف انك تحمّلتِ كثيراً ، وصبرتِ طويلا . . . اترى ؟..

ولم يكمل كلامه . لقد اراد ان يقول شيئاً ، ولكنه تردّد ولم يجرؤ لسانه على القول ، فقد تذكّر انه نسيهـا في الغربة وتزوّج امرأة غريبة ، فهل تتناسى نادرة ذلك الآن ؟!

وابتسمت نادرة من بين دموعها ابتسامةً أعمق واكثر صفاء ، ورفعت اليه عينين فيهما شوق وحب وأمل ، وفيهما في الوقت نفسه ، خوف وخجل من الفارق البعيد بين ثقافتها الابتدائية الساذجة ، وثقافته الجامعية العالية ... أما الزوجة

الغريبة التي ماتت فليس شبح ذكراها بالذي يشغل بالها ، او يؤثر على عاطفتها . ولكنها لم تقل شيئاً .

فقال منصور وهو يربت على يدها بمودّة وحنان ، وما تزال يده الاخرى ممسكة بيدها :

ـ لن تخجلي بي بعد اليوم ! إن الله وإرادة الحياة لأرأف بنا من أبناء الحياة .

فمسحت نادرة دموعها ، وأشرق وجهها بابتسامة الانتصار . ثم ضغطت على يد منصور وقالت :

ـ أنا سعيده وفخوره فيك يا منصور ! الحمد لله على سلامتك !

وخرجت مع أمها في وسط الليل الساكن ، وهي تحسّ بأن النجوم كلها تضحك لها ، والقمر الساطع يبثّها التهنئة ، وأن الدنيا كلّها أضيق من أن تتّسع لفرحتها . انها تودّ لو كانت جميع فتيات المدينة امامها الآن ، لتتحدّاهنّ وتختال بينهنّ مزهوّة كالطاووس ، فيعرفن أن « العصفور الذي طار ـ كما كنّ يقلن ـ قد عاد الى يديها من جديد ، ليغنّي لها اغاني الحب والرضى ، وليحوّل شماتتهنّ القديمة الى

غيظ يمزّق منهنّ المرائر! لقد كان العصفور الذي طار صغيراً قليل الشأن ، أما الآن فقد عاد اليها نسراً شامخاً عظيم الشأن ؛ فليس في المدينة كلّها من يستطيع أن يدعوه الآن باسمه المجرّد « منصور » ... لقد أصبح الآن على ألسنة الجميع ، وفي نفوس الجميع « منصور بك » ، بحقّ ، لا بفضل درجة او وظيفة ، بل بعلمه وذكائه وعصاميته؛ وأهمّ من ذلك ان هذا اللقب الذي كان من قبل كبيراً في عينيه ، وما يزال كذلك في عيون الناس ، اصبح مثاراً لسخريته واستخفافه ، لأنه اكبر منه واجلّ شأنا !

[إنهم في الدير يعلّموننا ان
الضمير رقيب صارم على اعمال
الانسان ، وان على المخطىء
ان يحاسب نفسه ويعتذر عن
اخطائه ، وانّ الرجوع عن
الخطأ فضيلة كبرى . . .]

ـ راجي شلهوب ؟! الستَ حقاً راجي شلهوب ؟!

فتفرّستُ في وجه سائلي الذي يقف الى جانبي امام بائع الطوابع في دائرة البريد ، ورحتُ اكدّ ذهني لأتذكّر اسم السائل الأشيب الشعر الذي عرفني . إن في هذا الوجه بقايا من وجه كنتُ اعرفه من قبل ، ولكنّ الذاكرة لا تسعفني الآن بمعرفته .

فعاد يسأل وهو يبتسم :

ـ الم تتذكّرني بعد ؟ يبدو ان شعري الذي ابيضّ قبل اوانه قداخفى عنك صورتي التي كنت تعرفها ونحن طفلان في الميتم !

فتذكّرتُه للحال . ذكّرتنيه كلمة « الميتم » ومددتُ يدي اصافحه بحرارة وشوق ، وهتفت :

ـ اميل نعماني ! ما اسعدني بلقائك ! إن شعرك الأبيض لم يمحُ ما عرفته في طفولتك من المرح العابث . . . اتذكر كم سنةً مرّت دون ان نتقابل ؟!

ـ اثنتا عشرة سنة ... إنها عمر طويل كما ترى . . .

منذ خروجي من الميتم . اتذكر ذلك ؟

فقلت ضاحكا :

- وحكاية الطرطور الاحمر ، اتذكرها ؟! لقد كانت طفولتنا حمقاء !

- وهل في الطفولة غير الحماقة البريئة ؟ ومع ذلك فجمالها في حمقها ونزقها !

وبعد وقفة قصيرة صافحته مودّعاً ، ومضيت لألقي برسالتي في صندوق الرسائل ، ورجعَ بي خيالي الى الأيام التي ذكّرني بها هذا اللقاء المفاجيء ...

★ ★ ★

حينما كنتُ طالباً داخلياً في الميتم ، وانا بين الثانية عشرة والسادسة عشرة ، كان من عادة الميتم ان يحتفل كثيراً بشجرة عيد الميلاد ، وكنا نحن الطلاب نقضي الاسبوعين السابقين للعيد في تهيئة زينات الشجرة ، فنعكف على الورق الملوّن نصنع منه قبعات مختلفة الأشكال ، وطيوراً ، وحيوانات متنوّعة ، وفوانيس ، واشكالاً زخرفية يتفنّن فيها خيال الطفولة كما يشاء . وكانت إدارة الميتم تحضر لنا عديداً من

حبّات الجوز ، فنعكف على صبغها بأصباغ فضيّة وذهبية ، لتتوهّج تحت الأضواء الساطعة حينما نعلقها على الشجرة .

وفي الليلة التي تسبق العيد كانت تنتصب في وسط القاعة الكبرى شجرة صنوبر ضخمة ، نقطعها من حديقة الميتم لتلك المناسبة المبهجة . وكانت تتدلى من اغصانها عشرات من عناقيد الضوء ، ومئات من الأشياء الصغيرة الملونة الزاهية ، ومن الهدايا المختلفة ؛ وإلى جانبها كانت تقام مغارة كبيرة من الورق المقوّى المصبوغ بألوان مختلفة ، وتتناثر على جوانب المغارة حشائش واعشاب خضراء طرية زاهية ، وفي شعابها خراف صغيرة بيضاء ، وتماثيل رعاة ، وثلوج تتناثر على المغارة وعلى الشجرة ، فيمتزج بياضها الناصع بالأشعة الذهبية الوهاجة التي ترسلها عشرات المصابيح الكهربائية الصغيرة الساطعة في السقف وعلى جوانب القاعة . وفي داخل المغارة كان طفل يضطجع في مذود ، ومن حوله حمار وثور يدفئانه بأنفاسهما ، وتمثالا السيدة العذراء والقديس يوسف جاثيين بخشوع للطفل الجميل الراقد بينهما ؛ وعلى باب المغارة رعاة راكعون بتقوى وإيمان ، ونجمة فضيّة كبيرة فوق المغارة

ترسل اشعتها حارة دافئة .

كان المنظر جميلاً جداً ، يلهب خيالاتنا بأدفأ المشاعر وابهج الأحاسيس ؛ وكان الرهبان في تلك الليلة ينزلون الى مثل طفولتنا ، ويشاركوننا الأحاسيس الطفلة البريئة ، فننسى في ذلك الجو العائلي الأنيس كل شيء الا العيد ، وشجرة العيد ، وبهجة العيد .

وكان مما يزيد بهجتنا طاولة كبيرة تمتدّ في جانب القاعة بضعة امتار ، وعليها هدايا عديدة مختلفة بعدد طلاب الميتم . وكان في تلك الهدايا اشياء ثمينة : كمنجة — لوحة فنية نفيسة ذات إطار جميل — الكتاب المقدس مجلّداً تجليداً فاخراً — اكورديون — وما الى ذلك ؛ وكان فيها كذلك دمى واشياء اخرى اقلّ قيمة ، وبعضها تافه يثير الضحك . وكان بينها على الطاولة صندوق مفتوح من اعلاه ، وفي داخله اوراق صغيرة مطوية بعدد الهدايا وبعدد طلاب الميتم ، وكان كل طالب يتقدم الى الصندوق ويتناول منه ورقة ويفتحها ، وعندئذٍ يتقدم مدير الميتم فيسلّمه الهدية المكتوبة في الورقة ، بين هتافات الطلاب وتندراتهم وضحكاتهم الرنانة المرحة .

وكنّا نسمّي هذه « السّحبة » (تومبولا) . وهذه الحفلة كانت ابهج حفلات العام واحبّها الينا . وكانت التومبولا هذه مصدر احاديثنا وتندّراتنا اياماً عديدة بعد الحفلة .

في العام الثاني من حياتي في اليتم ، تجمّعنا كالعادة في القاعة الكبيرة ، بجانب شجرة الميلاد الضخمة المحمّلة بالهدايا والأضواء الساطعة ، ورحنا ننشد اناشيد الميلاد الجميلة ، ونحتفل بتلك المناسبة السعيدة .

كانت فرحتنا غامرة ، كعادتنا في مثل هذه المناسبة من كل عام . وجاء دور التومبولا ، ورحنا نتقدم واحداً إثر واحد ، نسحب الأوراق من الصندوق ، ونتناول الهدايا من يد الرئيس ، بين تصفيق الزملاء وهتافاتهم وضحكهم . وجاء دوري ، فمددتُ يدي في الصندوق واخرجتُ ورقة مطوية وناولتها الى الرئيس ليفتحها ويعطيني الهدية المكتوبة فيها .

كانت على الطاولة كمنجة جميلة ، في غلاف اسمر كالتابوت ، وكانت مكشوفة في وسط غلافها الطويل المفتوح على الطاولة . ومنذ بداية الحفلة كنتُ انظر اليها واصلّي في قلبي ان تكون هي نصيبي من التومبولا هذه المرة . وحينما فتح الرئيس الورقة

كانت عيناي على الكنجة ، وقلبي يخفق في انتظار الفوز بها ، حتى لقد كنتُ اهمّ بأن امد يدي لاتناولها ، ظنّاً بأن صلاتي قد استجيبت ، وانها هي نصيبي المنتظر !

ولكن ما كاد الرئيس يقرأ الورقة حتى انطلقت من حنجرته قهقهة عالية ، وقل وضحكته ما تزال تتجاوب بجلجلتها ارجاء القاعة الواسعة :

- راجي شلهوب ... « طرطور احمر ! » ...

ثم امتدّت يـــده على طرطور من الكرتون الأحمر منتصب على الطاولة ، فتناوله ووضعه على رأسي ، بين ضحكات الاولاد المتواصلة ، وصيحاتهم المرحة الصاخبة ، وصفيرهم ...

وعلى الرغم من أن الحفلة كانت للتسليـــة ، ولادخال البهجة الى قلوب طلاب الميتم ، وانني لستُ أول من نال مثـل هذا النصيب الكاريكاتوري المضحك في التومبولات السابقة ، إلا أنني شعرتُ بانكماش أليم ... والأنغام الحلوة التي كنتُ - حتى سحب الورقة من الصندوق - أتخيّلها تنبعث دافئة منعشة من الكنجة ، تحوّلت في نفسي الى أصوات نحيب مكبوت ، وحشرجات احتضار مخنوقة ؛ وتصوّرت ضحكات زملائي

المجلجلة سخريات شماتة واستهزاء . فشعرتُ بحاجة شديدة الى البكاء وأنا أعود الى مكاني في وسط عاصفة مدوّية من قهقة الطلاب وصغيرهم ، وقد نزعتُ الطرطور عن رأسي وحملته بيدي .

وكان اميل النعماني يقف هناك الى جانبي ، وكأنما فاضت به رعونة الطفولة النازعة الى المرح والسخرية ، فمال اليّ وهو يضرب ركبته بيده من فرط الضحك ويقول :

- ابو طرطور !.. ابو طرطور !..

وراح ينغّمها ساخراً وهو لا ينقطع عن الضحك . فشعرتُ نحوه بكراهية شديدة ، ووددتُ لو أهشّم اسنانه لعلّه يكفّ عن الضحك والسخرية . ثم انسحبتُ من قربه الى آخر القاعة ، ومزّقتُ الطرطور حانقاً ، وقذفتُ به الى ركن القاعة الخلفي ، واندفعت من عينيّ دمعتان حارّتان ...

لقد كان ذلك من اسوأ أعياد الميلاد في طفولتي !

ثم انتهت الحفلة ، وخرجنا من القاعة لنمضي الى النوم. ولاحظتُ إميل النعماني يسير خلفي مع زميل آخر وهو يضحك ويضع يديه فوق رأسه على شكل طرطور ، ويقول

بنغمته الساخرة الشامتة : « ابو طرطور !». ابو طرطور ! »

وفي فورة من الغضب لم استطع منعها ، استدرتُ نحوه وصفعتُه على وجهه بكلّ قوّتي ، دون أن افكّر في العواقب. واذا بالرئيس يسرع نحوي ، ودون ان يسأل عن السبب ، راح يشدّ أذني بيده الضخمة ، حتى حسبتُها انخلعت من مكانها، ثم قال لي غاضباً : « سأراك في صباح الغد في مكتبي بعد ان تنتهي صلاة القداس » .

وفي الليل امتلأ نومي بأحلام التوابيت ، وأنغام كمنجة غير مرئية ، ووجوه لاعبي السيرك الملوّنة ، وخناقة مع إميل رأيتني فيها أضغط بيديّ على عنقه حتى يسقط على الارض ميتاً، وشرطة يضعون القيود في يدي ويسوقونني الى السجن . وصحوت وانا ادخل غرفة مظلمة وينطبق ورائي باب حديدي ذو قضبان ضخمة ، والدموع تبلّل خدّي .

وفي الصباح كانت عقوبتي ان ابقى الى الظهر في غرفة الدرس اكتب قصاصاً طويلا .

الطلاّب كلّهم يلعبون ويمرحون في الساحة ، وانا

وحدي وراء الطاولة ،اكتب واكتب واكتب، ومرةً افرك يديَّ لاريح اصابعي، وطوراً اتمطّى لاريح اعصابي المتعبةمن طول الجلوس وكثرة الكتابة .

حتى إميل النعماني يلعب ويركض مع الآخرين في الساحة ، لا يناله قصاص ، ولا تصل اليه يد العقاب وهو السبب في ما اعانيه !.. لله كم اودّ ان انتقم منه !

ولكنّ امراً لم يكن في الحسبان طرأ على الموقف . إنهم في الدير يعلّموننا ان الضمير رقيب صارم على اعمال الانسان ، وأنّ على المخطىء أن يحاسب نفسه ويعتذر عن أخطائه ، وان الرجوع عن الخطأ فضيلة كبرى . ولعلّ ضمير إميل قد استيقظ ، فاذا به يدخل غرفة الصف مع الرئيس ، ويمدّ يده اليّ معتذراً ، ويقول :

ـ سامحني ! انا المذنب ... لم اكن اقصد الاساءة اليك!

فوقفتُ انقّل عينيَّ بينه وبين الرئيس ، فهز الرئيس رأسه الى اسفل مرتين او ثلاثاً ، وقال :

ـ لقد اخبرني إميل بكل شيء ، وهو الآن يعتذر

اليك . إن الله نفسه يغفر للمسيئين إذا تابوا إليه . هيّـا مدّ يدك وصافحه ، وانزلا الى الساحة لتلعبا معاً . كل عام وانتما بخير !

وفي غمرة من التـأثر العميق مددتُ يدي وصافحتُ إميل ، وخرجنا معاً من الغرفة والرئيس ينظر الينا قريراً ، كوالد رحيم يرى السلام والسعادة يخيّمان على بيته ، ويملآن حياة ابنائه !

[وحدة في وسط مجتمع عامر ؟! وهو يحسّ احساساً داخليا ان هناك عيونا من حوله تراقب يديه وهما تتلمّسان المائدة بحثا عن شيء عليهما .

وشعرت ايلين لاول مرة بالاعجاب الحار ببول ، وبقوته النفسية الرائعة ... وقالت : « انت عظيم يا بول ! إن ثقتك بنفسك تملأني بك اعجابا ... »]

كان جالساً في الزاوية الخلفية من البار ، خلف مائدة مستديرة ، وكان وحيداً ، وأمامه على المائدة زجاجة بيرة صغيرة وكأس ، وكانت احدى يديه تمسك بالكأس ، والاخرى تمسك بالزجاجة ؛ وفي ركن فمه غليون ينفث دخانه متلاحقاً . ثم يرفع يده عن الزجاجة فيسحب بها الغليون من فمه ، ويرفع الكأس بيده الاخرى ، فيجرع منها جرعة ثم يعيدها الى مكانها من الطاولة ، ويظل ممسكاً بها بيده كأنما يخشى عليها أن تهرب اذا هو أفلتها ، ويعيد الغليون الى فمه ، وتروح يده تتلمس الطاولة بحثاً عن الزجاجة ، وقد قرّب وجهه من الطاولة ، وزمّ عينيه حتى لتكاد رموشها الشقراء المكسّرة ينطبق بعضها على بعض ، وهي ترمش وترتجف بسرعة ملاحقة يده في البحث عن مكان الزجاجة على الطاولة .

كان شاباً نحيلاً ، مديد القامة ، أشقر الشعر ، ضعيف البصر ؛ وبين الفينة والفينة كان يمطّ شدقيه حتى لتحسب فمه قد وصل الى حدود أذنيه . ولم أكن قد رأيته قبل هذه المرة .

وكنت اذ ذاك أجلس في البار ، والى جانبي فتاة اميركية ذات شعر أشقر يتدلّى على كتفيها كشلال من وهج ، وكنّا نحتسي كأسين من (الفيرموت) لفتح الشهية قبل ان ندخل الى قاعة الطعام المجاورة لنتناول الغداء . وكان اسم الفتاة ايلين ديوك . فملتُ عليها وسألتها هامساً :

ـ أتعرفينه ؟

فسألتْ بسرعة : ـ من هو ؟

فقلت مشيراً بيدي اشارة خفية نحوه : ـ السيد الذي يتلمّس الطاولة بحثاً عن الزجاجة وهو يدخّن الغليون .

فالتفتت ايلين الى حيث أشرت ، ثم قالت بصوت فيه اشفاق وتأثر :

ـ مسكين ! انه شاب انكليزي قدم أمس ليدرس التأليف الموسيقي في روما ، ونزل معنا في منزل الطلاب . لقد رأيته امس بعد وصوله ، وتأثرت له كثيراً . انه لا يعرف احداً هنا .

ثم امسكت بكأس الفيرموت التي امامها وقالت :

ـ هيا نمض ونجلس معه لنؤنسه .

وحملت انا ايضاً كأسي ، وقلت وانا انهض من مجلسي :

ـ هلمّي بنا .

ولم يفطن الشاب الى وصولنا حتى هتفت به ايلين :

ـ هالو بول ؟ اتسمح بأن نشاركك الجلسة ؟

فرفع الينا وجهه ، وزمّ عينيه ، وراحت رموشه تتراقص بسرعة ، ومن خلال شدقيه اللذين مطّهما الى حدود اذنيه قال دون ان ينهض من مجلسه :

ـ هالو مسّ ديوك ! انا سعيد برؤيتك . اجلسي .

فقدّمتني ايلين اليه ، ثم التفتت اليّ وقالت :

ـ مستر بول ! انه قدم امس من بريطانيا . انه مؤلّف موسيقي .

وبينما انطلقت الآنسة ديوك تحادثه ملاطفة ، كانت عيناي

تتفرّسان في عينيه الضيّقتين الكليلتين ، وحركات يديه العصبية على الطاولة حينا ، وحينا على الزجاجة والكأس ، وتارة على شاربيه الاشقرين الدقيقين المتدليّة اهدابها عن طرفي فمه ، يفتلها بعصبية او يحسّس عليها . وكنت اتساءل في نفسي : « أيؤلف الموسيقى وهو لا يبصر إلا البصيص الضئيل ؟ ! » ولم اتبادل معه الا حديثاً قصيراً جداً : عبارتين او ثلاثا ، ثم تركت المجال لأيلين لتؤنس جوّه بحديثها .

وانتهينا من الشراب ، فقالت ايلين :

أنمضي لنتناول الغداء ؟

ومن الباب القريب المفضي الى قاعة الطعام دخلت ايلين وتبعناها ، فاخترنا مائدة قريبة وجلسنا حولها ، ثم انضمت الينا فتاة فرنسية من زميلاتنا في المنزل اسمها فرنسواز ، وراح الحديث يدور بالانكليزية والايطالية والفرنسية . ثم تركنا بول يجاذب ايلين الحديث وحدها اغلب الوقت ، وانا وفرنسواز نتحدّث وحدنا . ولاحظتُ ان فرنسواز كانت تتجنب النظر الى بول ، نافرة من شكله وحركاته ، ولم تشعر بالرثاء له ،

وكانت احياناً تغمزني وهي تكاد تطلق ضحكة السخرية كلّما رأته يتلمّس المائدة بحثاً عن صحن الطعام ، او الشوكة ، او السكّين ، او الخبز ؛ وتزداد سخريتها كلّما رأت شاربيه يتلوّثان بصالصة البندورة ، او يتدلّى منها حبل معكرونة او غير ذلك . وقبل ان ينتهي بول من تناول الصحن الثاني كانت فرنسواز قد انهت غداءها ، فاعتذرت وغادرت المائدة ، ودعتني لاتناول معها فنجان قهوة في البار ، وبقي بول وايلين وحدهما يتابعان تناول طعامهما .

لم تكن فرنسواز وحدها هي التي لم يعجبها منظر بول ؛ فقد كانت اغلب فتيات المنزل ، وهنّ من شعوب عديدة ، ينظرن اليه بسخرية ؛ واذا شاركته احداهنّ في سير قصير او في جلسة ما ، فكانت تفعل ذلك لتتسلّى بمراقبة حركاته : مشيته المتمايلة ، وخطواته الواسعة البطيئة ، ويديه اللتين لا تكفّان عن العبث بشاربيه الا لتعبثا بالغليون او علبة السجائر او زجاجة البيرة ـ وهو لم يغيّر شراب البيرة مرة واحدة منذ ان جاء الى المنزل ؛ سواء أكان يطلبها لنفسه أم كانت تطلبها له مسّ ديوك .

اقول مس ديوك لانني لم ار زميلا او زميلة سواها يقدّم شرابا لبول ، او يشاركه في جلسة وديّة طويلة . ولكنه هو كثيراً ما كان يدعو الزميلات الى شرب كأس معه في البار ، وكنّ غالباً يعتذرن وينصرفن عنه وهن يضحكن ضحكة مكتومة ساخرة .

وكان هو يشعر بذلك ويعاني منه الكثير في نفسه ، فهو في اغلب الاحيان وحيد على مائدة الشراب ، وعلى مائدة الطعام ، وفي قاعة الجلوس ، وقاعة المطالعة . واذا اراد الخروج للنزهة كان يخرج وحده ، الا اذا رافقته ايلين . وكانت ايلين ترافقه او تجالسه بدافع الاشفاق ؛ وتشعر بأنها تؤدي بذلك عملا انسانياً نحو شاب في حاجة الى رفيقة تؤنس عزلته . انه في سجن قاس من عاهته المؤلمة ـ كما كانت تقول ايلين ـ وتزداد قسوة سجنه هذا بالوحدة ، وتزداد وحدته قسوة اذ يرى الزملاء من حوله يجلسون معا ؛ ويتحادثون ، ويضحكون ، ويشربون ، ويتخاصرون ، ويغنّون مرحين .

وحدة في وسط مجتمع عامر ؟! وهو يحسّ احساسا داخليا ان هناك عيونا من حوله تراقب يديه وهما تتلمسان

المائدة بحثا عن شيء عليها . يحس بذلك حينما يشعر بصمت قصير يسود من حوله وهو يبحث عن ذلك الشيء ، ثم يتجاوب في نفسه صدى ضحكة ساخرة مكتومة تنطلق على مقربة منه من اكثر من فم واحد . وعند ذاك تمضي رموشه تتراقص بسرعة عنيفة من عينيه المزمومتين اللتين تكادان تلتصقان بظهر المائدة ، أو تمضي اصابعه تعبث بشاربيه بحركات عصبية سريعة ، او يمدّ يده الى جيوبه بحثاً عن علبة السجائر وعلبة الثقاب ، ثم يفتح علبة السجائر ويرفعها بيد الى مقربة من عينيه ، وباليد الاخرى يتلمّس السجائر ليتناول واحدة منها يضعها بين شفتيه المطوطتين الى حدود اذنيه ، ثم يطبق العلبة ويعيدها الى جيبه ، ويفتح علبة الثقاب قرب عينيه ويمضي يحسّس على عيدانها حتى يخرج منها عوداً ويشعله ويشعل بلهيبه سيجارته .

كان يفعل ذلك وهو يحاول دائماً ان يبدو طبيعياً ، غير مبال ، كأنما لاتهمّه الوحدة ، ولا يثيرشعوره ابتعاد الآخرين عنه . انه يكتم معاناته النفسية العميقة بسيطرة باردة ملأى بالتحدّي .

واقيمت في المنزل حفلة رقص كبرى ليلة رأس السنة لطلاّب المنزل وضيوفهم . وكانت حفلة مرحة ممتعة : القاعة الكبيرة الواسعة تغصّ بالراقصين ، والاوركسترا في الزاوية تعزف بلا انقطاع ، رقصة وراء الاخرى مباشرة ، وكل شاب يرقص مع الفتاة التي يجدها دون شريك . انهم يغتنمون الفرص السريعة ليرقص كل شاب مع الفتاة التي يريدها ، قبل ان يسبقه اليها زميل آخر . وبول وراء مائدته ، يودّ ان يشترك في الرقص ، ولكنه لا يدري على أي فتاة يميل ، فهو لا يستطيع ان يسابق الآخرين ، ويتنقّل بسرعة بين الموائد ، لئلا تعثر قدماه فيسقط على الأرض في حفلة صاخبة كهذه . وما تكاد الاوركسترا تبدأ العزف حتى تخلو جميع الموائد من الفتيات ، وتكون كل فتاة بين ذراعي شاب ، فلا يلحقه الدور .

وفي غمرة اللهو والرقص والمرح لم تفطن ايلين الى بول ، حتى أشرتُ اليه وأنا أرقص معها في منتصف الليل . وعند ذاك التفتت اليه بتأثر وقالت :

ـ مسكين ! لا بدّ انه يتعذّب . كان يجب ان يجد شيئاً

من العطف ، ولكن لن تهتمّ بذلك ايّة واحدة هنا . انهن في غمرة اللهو الصاخب .

وسمعت حديثنا فتاة ارجنتينية كانت تراقص شابا اسبانيا بقربنا ، فالتفتت نحوه ثم مالت عليّ وقالت ضاحكة :

ـ لماذا لا تتخلّى له انت عن دورك ؟!

ثم مضت تدور مع زميلها ، وابتعدا في وسط القاعة الرحبة المائجة بالراقصين ، وهي ما تزال تضحك ، ورنين ضحكتها يضيع بين ضجيج الموسيقى ومرح الراقصين .

وقالت ايلين متأملة :

ـ سأرقص معه الرقصة القادمة .

وضحكت مشفقة ، ثم قالت بعد قليل : ـ أرجو ان يجيد الرقص على الأقل ، فلا يعرّضني لسخرية الاخريات !

وفي الدورة التالية مضت ايلين الى مائدة بول ، وكان يجرع كأسا من البيرة دون ان يرفع رأسه عن المائدة . فتناولت يده بلطف وقالت :

ـ هلمَّ بنا يابول . لم أرك ترقص ولا مرَّة منذ ان بدأت الحفلة .

فزمَّ بول عينيه حتى كادتا تنطبقان وهو يرفع وجهه نحوها ، ورموشه تتراقص بسرعة ، وشدقاه ممطوطان الى حدود أذنيه ، وقال :

ـ أوه ! شكراً ! ولكنني كنت استمتع برقص الآخرين .

ونهض وهو يبتسم ويده بيد ايلين ، وقد انحنى كثيراً حتى كاد وجهه يصل الى حافة المائدة لكي يتبيّن طريقه وهو يخرج من خلفها . إلاَّ ان حيطته هذه لم تحمه من الارتطام بساق الطاولة ، فاذا به يخرّ راكعاً على ركبته ، وما تزال ساقه الاخرى بين الطاولة والكرسي ، ثم انكفأ على وجهه ، وانكفأت الطاولة فوقه ؛ وانقلبت الزجاجة والكأس وتحطّمتا على الأرض ، وتطاير ما فيها على الارض وعلى ملابس الراقصين والراقصات القريبين ، وعلى ملابسه وملابس ايلين .

وبعاصفة من الخجل والاشفاق معا راحت ايلين تحاول ان تنهضه ، وتجمّع عدد من الراقصين يعينونها ، بينما مضت الراقصات ينفضن ثيابهن مما أصابها من رشاش البيرة متأففات غاضبات . وانطلقت الضحكات من جوانب القاعة الواسعة .

وحينما نهض بول راح يسوّي بيديه شعره الذي تناثر على جبينه، ويضحك مع الآخرين دون أن يظهر عليه أثر المبالاة. وسرعان ما لفّ ذراعه حول خصر ايلين التي لم تنفض بعد رشاش البيرة عن ثيابها ، ومضى يدور بها في وسط الحلبة على أنغام الرومبا ، وعيناه مزمومتان ، ورموشه ترفّ بسرعة ؛ وايلين تنظر بحذر مع كل خطوة لئلا يعود رفيقها الى الاصطدام والسقوط ، وقد انتفخ وجهها بالدم الاحمر الملتهب حياء وخجلا .

وأحس هو بحذرها وخجلها فقال ضاحكاً ، وهو يريد ان يعبّر عن تحدّيه لسخرية الآخرين :

ـ سيكون اول تأليف موسيقي لي بعنوان « سقطة في حلبة الرقص » ! انه موضوع لطيف ، أليس كذلك ؟!

وشعرت ايلين لأول مرة بالاعجاب الحارّ ببـــول ، وبقوّته النفسية الرائعة . فشدّت بيدها على ظهره وقالت:

ـ أنت عظيم يا بول ! انّ ثقتك بنفسك تملأني بـــك اعجابا . . . أهنئك من كل قلبي !

فارس عربي من الصحراء

[... وراحت تجول ببصرها على عشرات الموائد المستديرة والمستطيلة والمربعة المنتشرة هناك ... وسرعان ما انتفض كل جسدها الملفوف بالبنطلون الضيق المرقط ، ثم ارتبكت قليلا وحملقت عيناها في جهة ما من وسط القاعة،وما لبثت ان انفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة ، اعرض من احلام صباها وشبابها ...

وفيما كانت السيارة تخرج من المنزل تطايرت من نافذتها اربع قطع صغيرة من الورق ...]

منذ ان كانت ماريا طفلة في احدى الجمهوريات اللاتينية الصغيرة ، كانت قصص الفارس العربي ، ابن الصحراء الاسمر ، ترافق خيالها واحلامها ؛ ذلك الفارس القادم من الصحراء الرملية على جواده ملتفا بعباءة فضفاضة ، وعلى رأسه كوفيته وعقاله ، كان هو الحلم الذهبي الذي يملأ دنياها الغنية باحلام الطفولة ، ثم بخيالات الشباب المتفتح : في الطفولة كانت تراه دمية جميلة فريدة تلهو بها ولكنها بها تحتفظ وتضن على التحطيم ، وفي الشباب كانت تحلم به فارسا حلوا يملأ فراشها بلذة الحب ، وايامها بنشوة السعادة . وكانت تسمع وقع حوافر جواده مع كل نقرة تنقرها بأصابعها على البيانو الذي اولعت به منذ الصغر ، والذي ما كادت تبلغ السادسة عشرة من عمرها حتى كانت من عازفيه البارعين ، وكانت تستطيع ان تحيي بالعزف عليه حفلات الكونشرتو في صالات الموسيقى المعروفة ؛ وتستمع اليها الجماهير دهشة معجبة .

وكان في بلادها عرب مهاجرون ، وكانت هي تعرف

ذلك ، ولكنها لم تكن تميز العربي من غير العربي هناك ، وكلهم يرتدون زياً واحداً ، وليس بينهم الفارس الصحراوي ذو العباءة الفضفاضة والكوفية والعقال ، وذو الوجه الملوح بشمس الصحراء الساطعة التي لا تحجبها الغيوم . ولم تكن تصدق لذلك ان في بلادها عرباً مهاجرين ، وإلا لاستطاعت ان تجد فارس احلامها وخيالاتها بينهم .

وكانت تسمع منذ طفولتها ان العربي يتزوج اربع نساء ، وبيته مملوء « بالحريم » يتمتع بهن كما يطيب له. ولم يكن في من تراهم في بلادها واحد لديه اكثر من زوجة واحدة ، وحكاية الحريم غريبة عن ارضها وعمن يقيمون فيها . وعلى الرغم من انها عاشرت في بلادها شباناً كثيرين ، فان الحب الذي تبحث عنه لم يهتد اليه قلبها ، والصورة الغائمة لفارسها لم يبد لها لونها الصحيح بعد ؛ وما تدري متى تتضح لها ، ولا أين ، ولا كيف .

وبلغت التاسعة عشرة ، واصبحت فنانة مرموقة ، وازدادت دنياها امتلاء بالخيالات والاحلام الجميلة . ولم يكن في بلدها معهد موسقى عال تستطيع ان تتابع فيه دراستها

الموسيقية العالية ، فجاءت الى روما وما تعرف من اللغات سوى الاسبانية ، لغة بلادها ، ونزلت في منزل للطلاب الغرباء يعج بالطلاب والطالبات من كل لون وجنس ولسان ولباس ، وكأنه بابل القرن العشرين .

كانت سمراء البشرة ، ذات عينين واسعتين تضحكان لكل وجه تقعان عليه ، وذات ابتسامة ملؤها الانوثة والفتنة ، فهي كلها ابتسامة كبيرة جميلة تمشي على قدمين تتخلجان في المسير كأنهما ترقصان في كل خطوة تخطوانها ؛ وكان يزيد في اغرائها وجاذبيتها انها كانت تتبذل في ملابسها ، فهي حينما تخطر بفستان قصير ، اذا جلست ارتفع الى ما فوق الركبتين ارتفاعا مثيرا ، وطورا ينطلون مرقط يلفها من الخصر الى الرسغ لفا ضيقا محكما يبرز كل مفاتنها ، وتارة بكلسون رياضي اسود قصير ، لا يخفي شيئا من أعلى الفخذين حتى الحذاء ؛ وكان نهداها دائما بارزين بشكل يدير رؤوس الشبان فلا تفارقها عيونهم ؛ كما كانت عيناها المشرقتان الواسعتان الضاحكتان ابدا أشبه بدعوتين صارختين الى اللذة يتلقاهما كل من تقعان عليه من طلاب المنزل ومن ضيوفهم .

وهكذا اصبحت منذ ان وصلت الى المنزل ، ملتقى عيون الطلاب ،ومدار همساتهم ، ومحط ابتساماتهم وانحناءاتهم وتحياتهم ، فهم يتسارعون الى التقرب اليها ومرافقتها ومجالستها على المائدة ؛ وهي تبتسم للجميع بإغراء ، وتتحدث اليهم باسبانيتها ، فيجيبونها بالايطالية أو بلغات اخرى لا تفهمها إلا اذا كانت مشفوعة بحركات واشارات تدل على معناها من قريب ، ولكن للشباب لغة عالمية يتفاهم بها ولو عجزت الشفاه عن الافصاح بحروفها الملفوظة ، ولا سيما اذا كان ذلك في شؤون الحب .

وفي اليوم الثالث لوصولها ، وصل الى المنزل فوج من الطلاب في زيارة قصيرة لروما ، وكان بينهم عدد من الطلاب العرب من مختلف الاقطار ، وكان بين هؤلاء الطلاب العرب شاب يرتدي فوق الملابس الافرنجية عباءة خفيفة هفهافة ، ويضع على رأسه كوفية وعقالا ، فكان زيه هذا مثار استغراب الطلبة الغربيين ومحط أنظارهم . وكان يتجول في المنزل وفي شوارع المدينة بهذه الملابس ، ويقول لمن يسأله عن ذلك انه بهذه الملابس يثير اعجاب الفتيات الغربيات ، فيقبلن عليه ،

ويتقبلن مداعباته بسرور ولذة ، ويجعلن رحلته في اوروبا ممتعة لذيذة وغنية بالمغامرات .

وفي موعد الغذاء من يوم وصول الفوج الجديد دخلت ماريا قاعة الطعام الواسعة ، وراحت تجول ببصرها على عشرات الموائد المستديرة والمستطيلة والمربعة المنتشرة هنـــاك لتختار واحدة يكون الى جانبهـا مقعد خال تجلس عليه ، وسرعان ما انتفض كل جسدها الملفوف بالبنطلون الضيق المرقط ، ثم ارتبكت قليلا وحملقت عيناها في جهة ما من وسط القاعة ، وما لبثت ان انفرجت شفتاها عن ابتسامة عريضة ، اعرض من احلام صباها وشبابها ، واسرعت وقلبها يخفق بالفرح نحو مائدة يجلس حولها ثلاثة من الشبان ، بينهم ذلك الذي يرتدي العباءة والكوفية والعقال ، فوقفت الى جانبه تتخلج بكل ما تملك من عوامل الاغراء والانوثـــة ، وامسكت بالكرسي الخالي قربه مستأذنة في الجلوس ، فتسارعت كلمـات الترحيب من افواه الشبان العرب الثلاثة بالعربية والانجليزية ، وواحد بايطالية لكناء مكسرة لم يكن بعد قد تعلمها جيداً . فما ان استراحت ماريا على الكرسي حتى وضعت حقيبة يدها على

الارض ، ومدت يدها الى العبـاءة تتحسسها بتدلّه ورقّة ، وقالت وهي تنظر الى لابسها بابتسامتها الحلوة الملأى بالاغراء ، وعينيها الواسعتين المشرقتين :

Arabo ?!

فأجابها : yes ! Arabo !

وباسبانيتها التي لا يصعب فهمها على من يفهم اللغة الايطالية ، راحت تسأله عن اسماء الملابس التي يرتديها، وتشفع اسئلتها بحركات واشارات تقرّب فهمها ، فيترجم كلامها رفيقه الآخر الذي يفهم الايطالية قليلا ، فيقول هو ، وهو يمسك بملابسه قطعة بعد الاخرى :

This عباية ؛ This كوفية ؛ This عقال ، وهي تكرر الاسماء من بعده ، ثم طلبت منه ان يكتب لها هذه الاسماء بحروف لاتينية ، فتناول من جيبه قلما وورقة صغيرة وراح يكتب لها . فلما انتهى من ذلك تناولت ماريا الورقة وضمتها الى صدرها منتبطة بها ، ورفعت رأسها الى فوق ، وأغمضت عينيها وهي تضم الورقة الى صدرها بحنان ونشوة وشغف ، لتستمتع بلذة الحلم البعيد في الزمن ، الذي تحول في لحظة غير منتظرة

الى حقيقة ؛ وهتفت من اعماق صدرها كأنها تستريح من عناء طويل مرهق : « Che Bello ! » أي : (ما أجمله !) وكانت هذه من العبارات القليلة جداً التي استطاعت ان تتعلمها من اللغة الايطالية حتى تلك الساعة .

وفي وسط لغات بابل المختلفة على مائدة صغيرة واحدة ، عرفت ان اسمه (مازن) ـ وقد فهمته (مازم) وظلت بعد ذلك تسميه هكذا ـ وانه عربي من فلسطين يدرس الهندسة في القاهرة ، وسينهي دراسته في نهاية العام الدراسي . وانهالت على ذاكرتها كل القصص والاحاديث التي كانت تسمعها عن العرب ، فسألته وهي تشير بيديها وعينيها ورأسها كله ، وتتمهل في كلامها لكي تجعله مفهوماً :

ـ انتم تركبون الخيل في بلادكم ؟

ـ طبعاً ، والخيل عندنا هي اجود الخيول في العالم وأجملها ، والعربي على ظهر جواده يشعر بأنه ملك ، وبأن الدنيا كلها تحت قدميه .

ـ وتركبون الجمال ايضاً تقطعون الصحراء على ظهورها ؟

ـ والجمال عندنا هي مراكب الصحراء ، تسير ولا تحس

بالتعب ، وتجتاز الصحراء كالبواخر التي تعرف سبلها في مسالك البحار .

فعادت ماريا تغمض عينيها من جديد وتتنفس تنفساً عميقاً تنتزعه من اعماق صدرها ، وتتمتع بالخيال الجميل في ركوب الجواد العربي الاصيل ، واجتياز الصحراء على ظهر جمل تطل من فوق سنامه على الدنيا الحرة الواسعة ، التي لا تغطي شمسها غيوم سوداء كئيبة ، ولا تتعالى فيها العمارات الضخمة المتراصة كعمارات روما وغيرها من المدن الكبرى .

ثم نظرت الى مازن وقالت :

- أتمنى ان ارى بلادكم الجميلة !

- تفضلي عندنا مرة ، وستركبين الجواد ، وتسيرين في الصحراء المضيئة على ظهر جمل ، فتشعرين بانك ملكة عظيمة ، والصحراء كلها تحت قدميك .

فهتفت من جديد تقول ، وفي عينيها اشراقة ساحرة :

(Ah! Che Bello!)

ثم استفاقت من نشوة الحلم السعيد ، ودون ان تتمهل لتصغي الى مقاطعة الشبان الثلاثة واشاراتهم المحتجة ، راحت

تقول وهي تشفع كلامها باشارات الايضاح :

- انتم العرب تتزوجون اربع نساء ، ونساؤكم محجبات لا تبدو وجوههن ابداً، وبيوتكم ملأى بنساء الحريم تستمتعون بهن كما تشاؤون ؛ أليس كذلك ؟

والشبان الثلاثة معا يقاطعونها وهم يهـــزون رؤوسهم بحركات نفي عصبية ، ويقولون معا بالانكليزية وبالايطالية في واحد : Non évero ! - Not True ! No ! , No !

وكان عسيراً ان يقنعها مازن ورفيقاه بأنها مخطئة في ما تتصوره عن العرب ، وان قصص الف ليلة وليلة ليس لهـا وجود عندهم . وكيف كان يمكن لجلسة قصيرة جداً كهذه ان تغير ما رسخ في ذهنها مدى تسعة عشر عاما عن العرب ونسائهم وحريمهم ؟ إلا انها قبلت كلامهم على كل حال دون ان تقتنع به ، ودون ان تفهم منه اكثر من (No ! No !)

وبعد الغداء خرجت ماريا مع الرفاق الثلاثـــة ، وهي تتأبط ذراع مازن فخورة مزهوة بأن فارس احلامها العربي الى جانبها بعد ان عاشت تسعة عشر عاما تبحث عن وجهه بين الوجوه فلا تجده ، وتكاد تيأس من الوصول اليه .

كانت ايام مازن في منزل الطلاب قصيرة لا تتجاوز الخمسة ، ولكنها كانت عامرة باللهو والعبث والمغامرات ، كما كان يقدر حينما يُسأل عن سبب ارتدائه الملابس العربية في روما ؛ فقد تدلهت به ماريا حتى لم تكن لتفارقه ، فهي معه على مائدة الطعام ، وهي رفيقته في جولاته في المدينة الكبيرة بملابسه العربية ، وهي ملازمته في نزهاته بعد الغداء والعشاء في الشوارع القريبة من المنزل . وفي كل ليلة تذهب معه الى السينما أو الى احد الملاهي ، فتراقصه وتتقبل مداعباته ومغازلاته وقبلاته بلذة ووله واستسلام . واراد هو ان يستغل الفرصة الى أبعد مداها ، فأظهر لها الحب ، ووعدها بأن يعود ليتزوجها في نهاية العام الدراسي ، وقال لها ان أباه وأمه سيفرحان بها كثيراً حينما يقدمها اليهما ، وستركب الجواد العربي الاصيل في بلاده ، وتستمتع كذلك بركوب الجمل وهي ترتدي الملابس العربية الى جانبه . وسألها عن معنى : (أحبك - أعبدك) بالايطالية ، فعلمته اياهما ؛ وكتب هو العبارتين على بطاقة صغيرة هكذا :

Ti Amo !
Ti Adoro !

ووقع تحتها : Mazen توكيداً لحبه وعبادته لها ، فأخذت البطاقة وقبّلتها بنشوة ، ثم وضعتها في علبة سجائرها لتظل تراها وتقبلها وتضمها الى صدرها كلما فتحت العلبة لتخرج منها سيجارة . وكانت هذه البطاقة الصغيرة المفتاح الاخير الذي وصل به مازن الى ما يريده؛ وبسذاجة بلهاء استسلمت اليه ماريا مطمئنة الى انها اصبحت له وانه اصبح لها الى الابد ، وان حلمها بالفارس العربي القادم من الصحراء قد تحقق أخيراً كما كانت تتمناه فما تبالي بنظرات الطلاب والطالبات الخبيثة اليها ، وهمساتهم من حولها وهي تسير متأبطة ذراع (مازن) تضاحكه وتغازله ، وهو بملابسه العربية وهي ينطلونها المرقط الضيق ، أو بكلسونها الرياضي الاسود الذي لا يستر منها غير العجز ... وعلى الرغم من وجودها في منزل الطلاب ، فقد فتحت (لمازن) غرفتها ليقضي في فراشها ليلتيه الاخيرتين هناك ، ولتطلق يديها اللتين اعتادتا مداعبة البيانو تعبثان في شعره ، وتتحسسان كل مكان في جسمه بلذة ونشوة تستجمع فيهما أحلام عمرها .

ولما غادر فراشها في صبيحة يوم سفره تعلقت به تغمره

بقبلات الوداع باكية منتحبة ، ولم تشأ ان تدعه يغادرها . ولكي يتمكن من التخلص منها راح يؤكد لها حبه ، ويعدها بان يكتب اليها دائما طوال مدة غيابه عنها ، وسيعود اليها بعد أشهر ليتزوجها ويحملها معه الى بلاده ؛ ثم خرج من الغرفة قبل ان تفتح ابواب الغرف الاخرى ويبدأ الطلاب بالخروج الى ممر المنزل الطويل، وتركها منكفئة على فراشها تبكي كالاطفال ومضى الى غرفته ليحزم امتعته ، ثم راح يودع رفاقه الباقين في المنزل ويقول لهم : « لقد شبعت منها ، والآن اتركها لكم لتشبعوا انتم منها كذلك ؛ انها سهلة القيادة لكل من يريدها ... »

وراحت جميع العيون تنظر الى ماريا ، بعد ذلك ، كلما خرجت الى احدى ردهات المنزل ، أو الى قاعة الطعام ؛ وتتهامس الشفاه بأخبار الليالي الحمراء التي قضاها مازن في فراشها يتظاهر لها بالحب ، وتستسلم هي الى احضان الفارس العربي القادم من الصحراء ، والذي طالما ملأ طفولتها وشبابها بالاحلام والخيالات الحلوة العجيبة ، بعباءته الجميلة الهفهافة ، وكوفيته وعقاله ، وبجسده الاسمر الذي لوحته شمس

الصحراء .

ومضت ماريا في حياتها ، ترافق الطلاب الآخرين في نزهاتهم وسهراتهم ، ولكن كل من كانت تصادفه منهم كان يريد ان يحل منها محل مازن ، وان ينال منها ما ناله ؛ فليس في سكان المنزل كلهم — حتى الخادمات — من لا يعرف حكاية مازن معها ؛ وكما شبع هو منها فلماذا لا يشبعون هم كذلك ؟ انها في نظرهم مجرد « مومس » غبية وليست طالبة ... بهذه الروح كان الشبان يتقربون منها ويتوددون اليها ، بينما تتجنبها الطالبات جهد استطاعتهن ، ولا يتكلمن معها إلا اذا لم يكن من ذلك الكلام مهرب . وكانت هي تمنح الشبان الذين يرافقونها ما يشاؤون من القبل ، ولكن من خديها فقط ، أما الفم فليس لهم ... لقد كرسته (لمازم) وحده لأنه وعدها بأن يعود ليتزوجها .. اللذة التي تنبعث من ثغرها مع أنفاسها الحارة ليست لهم ، بل له وحده ، وأما الخدان الجامدان فلينالوا منهما ما شاؤوا من القبل ، وعبثا يحاولون الوصول منها الى اكثر من ذلك . لقد كانت تعيش على الحلم الجميل في ان يعود (مازم) يوما ليتزوجها ويفر بها الى صحرائه العربية ذات الرمال الذهبية

والشمس التي لا تحجبها الغيوم .

ولكن الايام راحت تتعاقب ، وتتألف من تعاقبها الاسابيع ، ولم تتلق ماريا بطاقة أو رسالة من فارسها الذي اسلمت اليه نفسها بكل ما فيها من لهفة الحب وأوهام الشباب ، مطمئنة الى وعوده؛ حتى الصورة التي التقطت لها معه وهي ترتدي العباءة والعقال فوق كلسونها الاسود الرياضي ، لم يرسلها اليها لتحتفظ بها تذكاراً منه ... وكانت هي تكتب اليه كل يوم رسالة ، وكانت في كل رسالة منها لهفة أشد من لهفات العناق الذي كانت تستسلم اليه في أحضانه ... لقد صمت عنها أطول مما تستطيع أن تحتمل ، ومع ذلك لم تكن ترضى بأن يحدثها أحد عن (مازم) ، أو ان تسمع أنه كان يتسلى معها دون ان يكون جاداً في حديث الحب والزواج . كان مثل ذلك الحديث يثيرها فيحيلها الى لبوءة هائجة . غير ان الاسابيع العديدة التي تعاقبت دون ان تحمل اليها من (مازم) رسالة أو بطاقة ، على الرغم من رسائلها التي تجاوزت العشرين ، راحت تردها شيئاً فشيئاً الى صخرة الواقع القاسية ، لتتحطم عليها أحلامها الذهبية الطويلة .

وتملكها الألم اليائس ؛ لقد ذهب فارسها بعد ان شبع من جسدها ، وهو الآن يتحدث عنها وعن مغامرات ايامه ولياليه معها بزهو وخيلاء ، ويتركها الى المرارة تنهش قلبها وتسود ايامها ولياليها .

اذن كان صحيحاً ما قاله لها بعض الشبان من ان (مازم) تركها لهم ليشبعوا منها كما شبع هو ؟ وكان صحيحاً ما قالوه لها من ان حديث حبه وزواجه لها كان مجرد حيلة ليصل بها الى غرضه ؟! انها اذن في نظر جميع سكان المنزل «مومس» وليست طالبة ... لقد أدركت الآن حقيقة خديعتها المرة ! . . لعل جميع جدران المنزل الكبير ، وممراته ، وأبهائه ، وساحاته ، والمقاعد والطاولات المنتشرة فيه ، وجميع ابواب غرفه ، كلها تنظر اليها ، كلما تحركت ، نظرات الازدراء والاحتقار ، وكلها تقول لها بعبارة واحدة : « لست طالبة ، ولكنك فتاة ساقطة ! »

وفي احد الايام رأى الطلاب والطالبات سيارة تكسي تقف أمام المنزل ، ورأوا ماريا تنزل من غرفتها يرافقها احد الخدم حاملا حقائبها ، ثم تركب السيارة وتغادر المنزل دون

ان تذكر لأحد اسم المكان الذي تقصد اليه . وفيما كانت السيارة تخرج من المنزل تطايرت من نافذتها اربع قطع صغيرة من الورق ، فأسرع احد الطلاب يجمعها عن الارض ويرتبها الى جانب بعضها البعض ، وأخذ يقرأ فيها وهو يضحك :

Ti Amo !

Ti Adoro !

(Mazen)

وقال احد الطلاب : لعلها لحقت به الى مصر !

وقال آخرون : بل هربت من روما لانها لم تعد تجد فيها مكانا لها !

وقال ثالث : أو لعلها عادت الى بلادها لتستر فضيحتها !

ولكن احداً منهم لم يستطع ان يعرف الجهة التي ذهبت اليها ماريا ، لتختفي عن عيون الزملاء والزميلات الذين ينظرون اليها بريبة وازدراء ، ولتدفن احلامها الطويلة بالفارس القادم من الصحراء !

[لقد أصبح مكاني هنا ،
بين الرجال الذين اعطوا مصر
دماءهم ... إنهم ينتظرونني
الآن على اسرتهم !]

المستشفى يعجّ بالجرحى ، والأسرّة لا تتّسع لأيّ مصاب جديد ؛ حتى الأرض أصبحت غاصّة بالحمّالات التي ينتظر أصحابها دورهم من عناية الأطبّاء والممرضات ؛ وأزيز الطائرات لا ينقطع ، وقصف المدافع من سفن الأسطول المعتدي يصمّ الآذان ، فيزيد من الفوضى في داخل المستشفى ، ومن قلق الأطبّاء والممرّضين الذين مضت عليهم أيام وهم يعملون دون انقطاع : العملية تلو العملية ، والاسعافات تلو الاسعافات.

وعلى الأرض وعلى الأسرّة أصوات متألمة ، ونحيب ، وأنين ، وحشرجات ؛ والأبواب تنفتح وتنطبق . ممرّضات ذاهبات آئبات ، وتمرجيّة يحملون النقّالات مسرعين ، يدخلون بها ملأى ويعودون بها فارغة ليملأوها من جديد ؛ لقد أصبحت الجثث مكدّسة في الشوارع والأحياء : أطفال ، نساء ، شيوخ ؛ بعضهم تحت ركام البيوت المنهارة ، وبعضهم بين ألسنة اللهيب المندلعة والمتصاعدة الى السماء . وشبان المقاومة الشعبية يتلقون المظلاّت الهابطة عليهم من السماء بنيران بنادقهم

ورشاشاتهم ؛ والسماء مع ذلك تقذف المظلات أفواجاً وراء أفواج ، والقنابل ورصاص المدافع الرشاشة من ايدي الهابطين تسبقهم كالمطر الى رؤوس المقاومين ، فتحصدهم بلا رحمة .

صرعى ودماء ، وصرخات حماس ، وأصوات فزع ، امتلأت بها الساحات والشوارع والأحياء والبيوت ، واكتظّت بها المستشفيات أضعاف ما تستطيع أن تحتمل .

وفدوى تروح وتجيء بين الأسرّة في المستشفى مسرعة ، مهتاجة الأعصاب ؛ هذا تضمّد جرحه ، وهذا تُحكم رباطه ، وذاك تبحث له عن دواء ، وذلك تناوله جرعة ماء ، وهذاك تربت على كتفه محاولة تهدئته ومنعه من الصراخ . لقد كانت أعصابها في حالة من الهياج والقلق يصعب معها العمل ، ويتعذر تحكيم العقل . الاّ أن فدوى تعمل ، وتعمل بجدّ ، لأنها لهذا جاءت الى هُنا ، وهي تعرف ماذا ستجد ، وتعرف في أية ظروف ستعمل .

لقد تطوّعت للعمل في بور سعيد على عجل ؛ لأن العمل هنا يحتاج الى عدد وافر من الأيدي العاملة . وقد دفعها الى ذلك رؤيتها الغدر ينصبّ على إخوانها وأبناء قومها هنا ،

وعلمها أن أبناء قومها يعيشون في جحيم من الصراع الدمويّ الجبّار ، لا يسلم منه الشيخ ولا الطفل الرضيع ، ويجب أن يتجنّد لدفعه كل مصريّ وكل مصرية ؛ودفعها كذلك شيء آخر غير اولئك ... كامل ؛ الذي سبقها الى هنا حين ظهر أن العدوّ سيحوّل ثقل هجومه الى منطقة القناة ؛ وراحت غاراته تتلاحق ؛ وقذائفه من الجوّ والبحر تتساقط مزمجرة مرعدة على المدينة الجميلة الرابضة على فم القناة . لقد أرسل كامل على عجل مع مئات المتطوّعين من شبّان القاهرة الذين أنهوا تدريبهم من قبل على أعمال المقاومة الشعبية ، لكي يساعدوا المدينة الباسلة ، لعلّهم يضمنون لها الصمود امام الغزوة الجائحة .

وقبل ان يغادر القاهرة عمد الى الهاتف ، ليخبر خطيبته فدوى بسفره ، لأنه لم يكن لديه متّسع من الوقت ليزورها ويودّعها؛ولكنها لم تدعه يغادر المدينة قبل ان تراه . فأسرعت وركبت اول سيارة لقيتها خارج البيت ، وطارت بها الى حيث كان كامل يتهيأ مع رفاقه لركوب السيارات المعدّة لنقلهم الى بور سعيد . ووصلت حينما كان كامل عند مؤخرة السيارة ، يهمّ بالصعود اليها ، فرمى ربطة أمتعته الى داخل السيارة ،

وجرى نحوها يتلقاها بذراعيه ويقول :

- لم يكن من الواجب أن تجيئي الآن ؛ لقد قلتُ لك ذلك بالهاتف ! إننا لا نستطيع ان نتأخر ههنا !

- ليس من الممكن ان تذهب الي ميدان المعركة ولا اراك !

- عفواً يا فدوى ! اتمنى لو استطيع ان ابقى معك الى الأبد ؛ ولكن رفاقي في السيارة ينتظرونني كما ترين. انتِ وانا نستطيع ان ننتظر ، ولكن المعركة لا تنتظر . إن بور سعيد الآن في اشدّ الحاجة الى الرجال ... وداعاً !

- لا تَقُل وداعاً ... الى اللقاء !

وأفلتها من بين يديه وجرى مسرعاً نحو السيارة وهو لا يفتأ يلتفت نحوها ، ويقول :

- الى اللقاء بعد المعركة ! انتظريني حتى أعود !

واجابت وهي تومىء له بيدها ايماءة الوداع ، وصوتها لا يصل إليه من بين اهازيج رفاقه في السيارة :

- بل سنلتقي هناك في قلب المعركة !

ثم راحت تكفكف دموعها بمنديلها الأبيض الصغير ،

بينما انطلقت السيارة بكامل ورفاقه بأقصى سرعتها .

ولم تتريث فدوى طويلاً بعد ان عادت الى البيت . لقد تدرّبت من قبل على اعمال الاسعاف والتمريض ارتقاباً لمثل هذا اليوم . وها هو الواجب يدعوها الآن . إن كل جزء من ارض مصر اصبح بيتها ومقرّ عملها ، وكل فرد في مصر اصبح من اسرتها المحتاجة الى رعايتها ومساعدتها ؛ وما دام كامل قد سبقها الى بور سعيد فمكانها الآن هناك الى جانبه ... إنه قد يصاب ، فهذه حرب لا ترحم الشباب ، ولا ترثي لقلوب المحبّين . . . وعندئذٍ مَن اجدر منها بان تضمّد جراحه ، وتسهر على تمريضه؟ !

وفي اليوم التالي كانت فدوى بين الممرضات اللواتي ارسلن الى بور سعيد . ولم تُضع هناك شيئاً من الوقت . الدلال والزينة والجمال لم يعد لها قيمة ؛ العمل وحده هو المطلوب ، وهو الذي له كل القيمة . وسرعان ما برزت في ثياب التمريض البيضاء ، وراحت تتنقّل بين الأسرّة ، تبتسم لهذا ، وتلاطف ذاك ، وتضمّد جراح ذلك ، وقلبها في محبسه غير المنظور يتقلّب على الجمر .

كانت تتفرس في كل وجه ، سواء وجوه من كانوا في الأسرّة ، ومن كانوا على ارض الغرف والممرات ؛ وقلبها يدق على عجل خشية أن يكون كامل بين المصابين. ولما لم تجده مضت تعمل وعيناها الى ابواب المستشفى ، وكلّما دخل التمرجية يحملون مصاباً جديداً راح قلبها يخفق بشدّة : لعلّه هو ! ...

وتشبك يديها على صدرها ، وتغمض عينيها وترتفع روحها الى السماء بصلاة حارّة ... فاذا لم يكن هو مضت تواصل تجوالها بين الجرحى بهمّة ونشاط ، الى أن ينفتح الباب من جديد ، وتدخل نقّالة جديدة عليها جريح آخر ، فتسرع الى ملاقاتها لتتفرّس في وجه الجريح الجديد .

ثلاثة أيام متلاحقة لم تنم فدوى خلالها ساعتين كاملتين ؛ وطائرات الأعداء تغير فتلقي على المدينة أحمالها الجهنمية ، سرباً وراء سرب ، وموجة إثر موجة .

وفي هذا اليوم الثالث دخلت النقّالة بأيدي اثنين من التمرجية . فخفق قلب فدوى كما يخفق كلما انفتح الباب ليدخل مصاب جديد ؛ وأسرعت تتفرّس في وجه الجريح ، وسرعان

ما تراجعت عن النقّالة ، واطلقت صيحة مخنوقة ، وشبكت كلتا يديها ، واستدارت الى الخلف تشرق في دموعها .

لقد كان هو !

كاد رأسها يدور وتسقط الى الأرض ؛ ولكنّها لم تلبث طويلاً ، بل استعادت رباطتها بسرعة . إنها في قلب ميدان المعركة ، والضعف لا يفيدها ولا يفيده ... لقد كان عليها أن تتوقع هذا ؛ بل لقد جاءت الى هنا لأنها كانت تتوقعه ؛ فهو جندي في قلب مجزرة مجنونة ... إنه الآن في حاجة الى عنايتها لا الى دموعها .

فتغلّبت على ضعفها وأسرعت الى جانب الطبيب تسأله :

ـ أيحتاج الى دم يا دكتور ؟

فهزّ الطبيب رأسه ايجاباً ، ولم يقل شيئاً . فركضت فدوى لتتبرّع له بكمية من دمها ، وما كان أشدّ ألمها وخيبتها حين أظهر الفحص السريع أن دمها ليس من فئة دمه ... لا بدّ من دم آخر . وانهمرت الدموع من عيني فدوى : دموع الخيبة واليأس معاً ... لقد كانت تريد أن تجعل دمها وسيلة بقائه ، ولكنّ هذه التضحية غير ممكنة ... وأسرعت ممرّضة

أخرى آلمها ما أصاب فدوى ، فتطوعت لنقل دمها الى كامل . وكان دمها ملائماً ، وملأ المساعد زجاجة من دمها ، واسرع ينقلها الى المصاب الذي نزف دمه غزيراً من اثر الجراح .

وارتمت فدوى على كتفي زميلتها تبكي وتشكرها بالدموع والزفرات ، فقالت الزميلة :

- انما قدمت دمي لمصر نفسها ... كلنا لها : هو وأنت وأنا . أسرعي ؛ العمل يحتاج الى قوتنا ونشاطنا .

وانتهى الطبيب من العملية السريعة التي اجراها لكامل ، فمضت فدوى مع التمرجية الذين حملوه الى أحد الأسرة وهو غائب عن الوعي . وعند السرير وقفت الى جانبه تتفرس في وجهه ، وفي عينيه المغمضتين ، وتمسح بمنديلها الدموع المنحدرة على وجهها برغمها ... حتى دمها لم تستطع أن تقدمه له وهو أحوج ما يكون الى الدم !؟ لو كان دمها يلائمه لشعرت بالتعزية لأنها استطاعت أن تعطيه وسيلة الحياة ! ولكن حتى هذه التضحية لم تستطع أن تقدمها ، بل قدمتها ممرضة أخرى لم تكن تعرفه ! السماء وحدها تعرف اية مرارة تعاني لحرمانها من هذه التضحية التي كانت تشتهي ان تقدمها لكامل !

ثم تركته ومضت تطوف بين الجرحى الآخرين وتبذل لهم عنايتها . انهم كلّهم مثله يجودون بدمائهم ، ويقدّمون ارواحهم على مذبح الوطن ، لأجل حرية مصر وانتصارها في المعركة ، فكلّهم جديرون بعنايتها ، لانها هي ايضاً لمصر مثلهم .

ولكنها ما تكاد تدور دورة واحدة بين الاسرّة ، حتى تعود بها قدماها من جديد الى سرير كامل ، تتفرّس في عينيه المغمضتين ، وتجسّ نبضه الذي يدقّ ضعيفاً خافتاً ، فتملأ نفسها الوحشة والخوف .

اتراه يعود الى الحياة !؟

وتحسّ بالمرارة تعصر نفسها وتوهن قواها ، ولكنها تتجلّد وتمضي في جولة جديدة بين الاسرّة ، تهدّىء من روع المذعورين ، وتحاول ان تهوّن من آلام ذوي الجراح الكبيرة النازفة ، حتى لم تعد قدماها قادرتين على حملها . واحسّت بذلك اثنتان من زميلاتها فنصحتا لها بأن تمضي لتستريح قليلا . غير انها اكتفت بأن تأخذ كرسياً وتضعه الى جانب سرير كامل ، ثم تنحني براسها لتريحه على مقربة من

صدره ، ثم تغمض عينيها ، بينما تقذف طائرات العدوّ ومدافع اسطوله حممها المجنونة على المدينة المكافحة الصابرة .

ولكن النوم غير ممكن في وسط هذه المجزرة الرهيبة. ولم يلبث ان دوّى انفجار هائل ، ثم هوى احد جدران المستشفى ، وتعالى الغبار والدخان بين اسرّة الجرحى . فساد الذعر ، وكثر الهرج والتراكض ، وغادر الاسرّة من كان في وسعهم التحامل على انفسهم الى غرف اخرى لم يمسّها الانفجار . وافاقت فدوى مذعورة ، فتفرّست في وجه كامل الذي يخيّم عليه الصمت. فلمارات بقايا الجدار تتهاوى، وينحني السقف من فوقها مزقاً جاثيات ، والجرحى يتصايحون ويستغيثون ، وبعضهم يجرون هاربين مذعورين ، والتراب الكثيف يغطّي ارض الغرفة الكبيرة ، اسرعت تحمل جسد كامل مع احد التمرجيّة وتغادر به القاعة الى غرفة اخرى اكثر أمناً . ولم يكن هناك سرير خالٍ تضعه عليه ، فلم تجد بدّاً من أن تمدّده على فراش على الارض ريثما تدبّر أمره .

كان كامل لا يزال غائباً عن الوعي . لقد كانت في جسده إصابتان ، احداهما لا تبعد عن القلب الاّ مسافةً

جدّ قصيرة ، والاطبّاء غير واثقين بعد من أنه سيعيش. وقد مرّ على وصوله الى المستشفى عشر ساعات لم يفتح فيها عينيه ، ولا نبس بحرف ، ولا أبدى حركة تدلّ على الوعي او على الشعور .

إن قلب فدوى ليزداد وجيبه وخفقانه كلّما مرّت ساعة جديدة وكامل في حالته هذه ، لا يتغيّر ولا يبدي حراكا ؛ والعدوان الاثيم لا يزداد الاّ حدّة ، وجنود المظلات ما يزالون يهبطون على الضفّة الشرقية من فم القناة ، وفي اماكن اخرى من اطراف المدينة ، بحماية الطائرات المقاتلة ، ومدافع الاسطول التي تنصبّ نيرانها بجنون رهيب على كلّ جزء من المدينة ، وبحماية النيران التي راحت تندلع في كل مكان بفعل القنابل المحرقة المنصبّة كالمطر على المدينة .

الازيز والدويّ متلاحقان ، وهما اعنف على اسماع الاطبّاء والممرضات ، وعلى اسماع الجرحى والمصابين وأعصابهم من كل شيء ، حتى من الموت المخيّم في كل مكان . إن ايدي الاطبّاء تكاد لا تعرف طريقها الصحيح في اجسام الجرحى ، والممرضات يكدن يعثرن في كل خطوة يخطونها لشدّة

الفوضى والذعر واصوات الجرحى على الارض وفي الاسرّة، ولكثرة المزدحمين في ردهات المستشفى وممرّاته هرباً من الموت في الخـــارج، او بحثاً عن ابنائهم وبناتهم بين القتلى والجرحى.

وفي المدينة، رغم الهلع والذعر والفوضى والنيران، تصميم على الموت لاجل الحياة... من الاكواخ الصغيرة التي تندلع فيها نيران الغزاة، الى عربات الباعة المتجولين، الى ماسحي الاحذية، الى عمّال البلدية، الى ساكني البيوت الفخمة واصحاب المتاجر... حتى العكاكيز في ايدي الشيوخ تحوّلت الى اسلحة نضال تطلّ من النوافذ والشرفات مترقّبة مرور جنديّ من الغزاة لتنزل على رأسه...

لم تعد بور سعيد مدينة آهلة بالسكان، بل ثكنة كبيرة كلّ من فيها جنود في السلاح. حتى النساء والاطفال حملوا البنادق والرشاشات، ومن لم يحمل سلاح النار فقد حمل الهراوات والفؤوس؛ وكلّهم اطلقوا الرصاص وادوات النضال الى جنود الاعداء.

ولم يكن بدّ من ان تركع المدينة الباسلة العزلاء امام

القوّة الرهيبة المدمّرة ، ولكنها ركعة قصيرة يعقبها النصر ، النصر الذي تخوض الموت لاجله ولو دنّستها اقدام الغزاة المعتدين .

وطلع الصباح على المدينة الباسلة وقد صمتت البنادق والمدافع الا لماماً هنا وهناك . وكان العدوّ قد احتلّ قسماً من المدينة رغم المقاومة الجبّارة ، وتوقّف ليستردّ انفاسه اللاهثة بعد ما لقيه من عناء قبل ان يطأ الارض المرتوية بدم النضال الباسل .

ومع الصباح فتح كامل عينيه بفتور وثقل ، ولكنه كان ما يزال يعاني من وطأة الجراح وثقل الغيبوبة . ودار بعينيه حوله بذبول مجهد ، فأحسّ بيد ناعمة تربت على يده المثنيّة على صدره ، واخرى تطوّق رأسه وتعبث بشعره . ورأى امامه وجهاً ينظر إليه ببشاشة وحنان . فابتسم واراد ان يقول شيئاً ، وان يرفع يده عن صدره ليضغط بها على اليد الناعمة ، ولكنه لم يقوَ على ان ينظر او يفعل شيئاً او يفوه بكلام . كانت جراحه شديدة الوطأة ؛ فعاد الى غيبوبته من جديد ، وانطبقت اجفانه بذبول رهيب ، وراحت انفاسه

تتراكض في صدره اولاً ، ثم تخفت قليلا ، وتعود ضربات نبضه بطيئة متثاقلة خافتة كما كانت .

ففزعت فدوى واسرعت الى الطبيب تدعوه، ولكن الطبيب ومعاونيه جميعهم كانوا لا يزالون يسعفون الجرحى الجدد الذين سقطوا برصاص الغدر قبل الصباح . غير ان إحدى زميلاتها اسرعت معها الى فراش كامل لعلّها تجدان وسيلة لانقاذه بالمخدّرات والحقن ، وما زالتا به حتى انتظمت انفاسه قليلا .

ومن نوافذ المستشفى كانت فدوى ترى جنود المدوّ المسلّحين ، ودباباتهم ، عند شاطىء القناة وفي شوارع المدينة المحاذية للشاطىء ، فتثور النقمة في صدرها ، وتودّ لو ملكت القوّة على سحق قوّاتهم المعتدية ، هذه التي نشرت الذعر والهلاك والدمار في قومها وارضها ، وجعلت نتاها في هذه الحالة الرهيبة . ثم تشيح فدوى بوجهها عن النوافذ لتمضي في تأدية واجبها الانساني والوطني بين اسرّة المستشفى التي تترنح بالأنين والدمار والصراخ الاليم .

كانت تعلم انها في حاجة الى اعصابها في هذا الموقف

الشديد الخطورة . إن حياة الكثيرين من المواطنين ، إخوان كامل ، وحياة كامل كذلك ، تحتاج الى حنانها وسهرها وقوة اعصابها. ولذلك تماسكت فدوى ومضت توزّع الحنان والبسمات المجهدة ، مع الدواء ، وتوزّع كذلك عبارات التشجيع والمؤاساة هنا وهناك ، ولم تعد تبالي بالتعب والارق . لئن كانت هي تشكو من التعب والارق ، فان كل من حولها يئنّون ويصرخون من آلام الجراح العميقة الناثرة في مختلف اجزاء اجسامهم ، وفتاها يصارع الموت في لحظاته الاخيرة من جراء جراحه .

وعند المساء عاد كامل ففتح عينيه المجهدتين مرة اخرى لفترة اطول من المرة السابقة ، ولكن شحوب وجهه كان اكثر من قبل . فلما رأى فدوى بجانبه ابتسم ابتسامة شاحبة مغتصبة من جراح الموت . فانكفأت عليه تبتسم وتبكي معا .

واستطاع كامل ان يخاطبها بصوت متقطع مجهد :

ـ لماذا اتيت الى ساحة الموت يا فدوى ؟

ـ لانك جئتَ اليها قبلي يا كامل !

ـ جئتُ اؤدّي واجبي ، واجب الرجولة . الوطن لا

يُترك للاعداء بسهولة .

- وهل يدعوك الواجب ولا يدعوني مثلك ؟!

واراد كامل ان يقول شيئاً آخر ، ولكن قـــواه لم تطاوعه . فقالت فدوى متابعة :

- كيف كان يمكن ان اقضي ليالي وايامي وانتَ هنا تخوض الموت امام قوى العدوان ، وفي كل لحظـــة اتخيلك ذهبت ضحية رصاصة او شظية قنبلة ؟!

فضغط كامل على يدها فوق صدره ضغطةً حاول ان يجعلها حارَّة فلم يستطع،وجاء صوته هامساً مجهداً ، بينما تتلاقى اجفانه بطيئة ذابلة :

- ربّنا ... يخلّـ . . يكِ !..

ثم انطفأ النور في العينين المتعبتين ، والتوى رأس كامل الى الجهة الاخرى . فدفنت وجهها على صدره تنتحب وتزفر في حشرجة ممزّقة رهيبة لا تعرف كم طـالت قبل ان تسرع الممرضات ويرفعنها عن صدر كامل ، ويمضين بها الي سرير قريب يؤاسينها ويشجّعنها ، بينما حمل التمرجية جثة كامل الى غرفة الاموات .

ودخل الطبيب الى حيث كانت فدوى تبكي وتنتحب ، فوضع يده على كتفها بحنان وقال مؤاسياً :

- لقد كان فتاك بطلاً ، مات وهو يحارب الاعـــداء لينقذ مصر .

ولم تستطع فدوى ان تجيب ، ولكنها راحت تمسح دموعها الحارّة بمنديلها الصغير . وعاد الطبيب يقول :

- انا اشعر بفداحة مصابك ؛ لقد فقدت حصتك الغالية ، ولكنك نسيت ان هناك حصة اخرى اغلى واعزّ ، هي التي ضحّى كامل بنفسه في سبيلها ... إنها مصر ، حصة كل مصريّ ، فاذا تركناها لقمة سائغة للعدوّ ، خسرها معك ملايين المصريين ... هيّا ، إن لكامل إخواناً آخرين ينتظرون ابتسامتك المشرقة ، ويديك اللطيفتين لتخفيف آلامهم !

وظلت فدوى فترة اخرى لا تجيب ، ثم نهضت عن السرير ، ومسحت دموعها ، ثم نظرت الى الطبيب وقالت :

- لقد اصبح مكاني هنا ، بين الرجال الذين اعطوا مصر دماءهم . سأكون بهذا وفيّة لروح رفيقهم كامل . إنهم ينتظرونني الآن على اسرّتهم ؛ وكامل هناك على كل سرير من

اسرّتهم !

فربت الطبيب على كتفها باسماً ، وقال :

ـ لستِ اقلّ بطولة منه ! هيّا . والله معك !

وتركت فدوى الغرفة وراحت تدور دوراتها المعتادة بين الاسرّة العديدة ، في الغرفة نفسها التي خرج منها جثمان كامل منذ قليل ، توزّع البسمات وعبارات المؤاساة على الآخرين ، وليس في قلبها غير الجراح والدموع .

الفهرست

صفحة	
٩	المقدمة
١٩	عائد الى الميدان
٣٣	من مذكرات والد
٤٧	استغراق
٥٩	قلوب طيبة
٦٩	منصور بك
٩٩	تومبولا
١١١	سقطة في حلبة الرقص
١٢٥	فارس عربي من الصحراء
١٤٣	فدوى

من

منشـــورات

دار الرائـــد

قصائد من الادب الاجنبي — توفيق اليازجي

عائـد الى الميدان — عيسي الناعوري

يصدر قريباً

اخي الانسان (مجموعة شعرية) عيسي الناعوري

٢ - ق ١ / ١٢ - ١٩٦١

انتهى طبع هذا الكتاب
على مطبعة الفنون ـ حلب
في ٢٧ كانون الاول ١٩٦١

• من صميم الحياة
تنبعث لتثير
حركة من فكر وشعور وحياة ؛

• من حقيقة الواقع
تنبعث باخلاص ودقة
لتعيد اليه
ما ينبغي
من تصميم وخير وبناء ؛

• لا تموج في أجوائها العربية الرحبة
حتى
تنطلق متسامية متعالية
في عوالم النفس الزاخرة وآفاق الانسانية الممتدة ؛

• هذه هي أقاصيص
« عائد الى الميدان »
يطلّ بها علينا من الاردن الشقيق
الكاتب العربي المعروف عيسى الناعوري
بما
يعهد القارئ في قلمه الخيّر
من
قوة واخلاص ، وابداع وبناء
وعطاء وغذاء .

الثمن ٢٠٠ غ. س

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 081685560